مجلة البيان ، السنة العاشرة ، العدد 98 ، شوال 1416هـ ، مارس 1996م

كلمة صغيرة

مفارقة عجيبة

يعرف كل دارس للإسلام أن هذا الدين شامل للحياة كلها ، وقد قامت دولة الإسلام منذ بدايتها في المدينة النبوية على هدي الكتاب والسنة ، واستمرت وتواصل مداها حتى بلغ المشرقين ، ولم يكن لها دستور سوى شريعة الله ، ولم يجرؤ مسلم على تبديلها حتى جاء الانقلاب الماسوني على يد (أتاتورك) عام 1924 م ، حيث قرر فصل الدين عن الدولة ، وقامت تركيا العلمانية بقوانينها المحادة لله ، في محاولة لإبعاد الإسلام عن التأثير في واقع أمتنا ، وقامت فيما بعد لهذا الهدف دول وأحزاب في شتى ديار الإسلام ، لا هم لهم سوى إبعاد الإسلام عن الحياة ، لتجد الأفكار الملحدة والنظم المستوردة والأحزاب الكافرة قدماً لها في الديار الإسلامية ، وسُنت قوانين جائرة بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان لمنع هذا الدين من العودة للحكم .

والعجيب أن يكون دين كهنوتي كالنصرانية يظلل الحياة في بعض الدول كألمانيا وإيطاليا بالحزب المسيحي الديمقراطي ، ولهذا الدين دولة معروفة تحكم باسمه هي الفاتيكان لها سفاراتها حتى في كثير من ديار الإسلام ، ولهم اجتماعات تتدخل في شؤون بعض الدول ، كما حصل في اجتماع كهنة (السنودس) الذي أشار على الأحزاب اللبنانية بضرورة المشاركة في الانتخابات القادمة ، أما في بلاد الإسلام الديمقراطية ! فويل ، ثم ويل لأي جهة إسلامية أو عالم مسلم يتحدث عن مثل هذه الأمور ، لأنها لا تعنيه في زعمهم هكذا حياة المسلمين في زمن (اللامعقول) ! .

والله المستعان

افتتاحية العدد

وعد الله .. الإسلام قادم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين . وبعد :

مرت على أمتنا الإسلامية في العقود الأخيرة أحداث جسام في شتى أقطارها ، وقد عانى بعض المسلمين من تلك الأحداث الكثير من الأذى والاضطهاد والتشريد والقتل والحصار ، مما يعرفه القاصي والداني .

ويقف أعداء الإسلام في الشرق والغرب حيال تلك الجرائم موقف المستهتر ، ولو أضير واحد من مواطنيهم لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها بصخب إعلامي كثيف ، فبينما يعاني المسلمون في البوسنة وفلسطين وكشمير وبورما والفلبين والشيشان من القتل الجماعي ، والتطهير العرقي ، وتدمير القرى والمدن ، نجد أولئك لا تعوزهم الأعذار الباردة والحجج التافهة ؛ بدعوى أن تلك الجرائم شؤون داخلية ، أو أن وراءها نفر من المتطرفين الإسلاميين ، أو أن إنقاذ المعتدى عليهم سيرجح كفة الصراع لمصلحة جهة دون أخرى ! أما هيئة الأمم وبطرسها الأرثوذكسي ، فهي تزيد الطين بلة بقرارات مشبوهة وحلول جائرة ، يكون المسلمون فيها غنيمة للمعتدين ، وما سلام (دايتون) عنا ببعيد .

إن هناك محاولات قائمة لإجهاض عودة الإسلام ، ولكنها بإذن الله ستبوء بالفشل .

إن أعداء الإسلام يقفون بكل وقاحة دون قيام أي توجه إسلامي يعمل للخروج على الهيمنة الأجنبية ، أو يحاول الاستقلالية وبناء القوة الذاتية للأمة ، فيعملون جاهدين على الإساءة إليه والتخويف من آثار توجهه بصورة فجة .

وحينما نتأمل في قضية (المجاهدين المسلمين) نجد تجسيداً للصورة السابقة ، فحين كان هؤلاء الشباب يَقُضّون مضاجع الجيش السوفييتي ، ويخلخلون صفوفه ،

ويذيقون قادته الأمرّين ، كانوا هم الأبطال ، بل الثوار - في عرفهم - ! بل كانوا
يُمَدّون بالدعم ، ويشجعون على مواصلة المقاومة للجيش الأحمر ، الذي كان يقف
بكل غطرسة يتحدى الغرب وجيوشه ، ويقف منهم موقف الند ، ثم صار ذلك
الجيش أضحوكة العالم ، وما لبث أن تداعت أركانه ، فخرج يجر أذيال الخيبة
والهزيمة من أفغانستان . نعم ، نحن لا نقول : إن المجاهدين الأفغان وحدهم هم
الذين أسقطوا الإمبراطورية السوفييتية ؛ لأنها كانت تحمل عوامل فنائها بانحراف
أيديولوجيتها ودكتاتورية قادتها .

وبعد أن أدى المجاهدون دورهم في أفغانستان أصبحوا مغضوباً عليهم ،
ومحلاً للاعتقال والقتل بدعوى كونهم إرهابيين ومتطرفين ؛ مما أدى إلى ردود
أفعال مأساوية
، وكان الأولى تلافيها بالأساليب (الحضارية
)التي يدعي هؤلاء تبنيها
، وهم الضاربون بها عرض الحائط .

ويتكرر الموقف مع مجاهدي البوسنة ، وهم الذين حز في نفوسهم أن يقف
إخوانهم مسلمو البوسنة محرومين من السلاح ، يتعرضون للعدوان الصربي
الأرثوذكسي الحاقد في ظل عدم المبالاة الدولية ، فتداعى أولئك الشباب لنجدة
إخوانهم ، ووقفوا ببسالة للدفاع معهم عن بيضة الإسلام وأعراض المسلمين
وممتلكاتهم ، وقدموا أنفسهم رخيصة في سبيل الله ، فيما نحسبهم ، ولا نزكي على
الله أحداً .

فماذا يضير الغرب من هؤلاء الفتية ، الذين يؤدون واجب الجهاد وواجب
الأخوة الإسلامية .. وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ..
[الأنفال : 72] ، ماذا يضير الغرب من وجود أولئك النفر لولا أنه يخشى أن
تعود للمسلمين دولتهم في قلب أوروبا التي ظن الغربيون أنهم
أجهضوها (بمؤامرة دايتون) . ولاشك أن خوفهم من الجهاد والمجاهدين
لخشيتهم من سريان هذه الروح في نفوس المسلمين بالفريضة الكبرى
التي وصفها الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنها ذروة سنام الإسلام ،
وحينها فلن يقدم أحد على محاولات إذلال المسلمين ومؤامرات

القضاء على قوتهم وجعلهم شعوباً متفرقين لا تجمعهم رابطة العقيدة والعقيدة وحدها .
وبخلاف ذلك ستكون روابطهم قومية ومنطلقاتهم أيديولوجيات منحرفة ، فهذا
ولا شك سيؤدي إلى السبات والتبعية والذلة ، هذا الموقف لا يخفى على كل مسلم
أنار الله بصيرته بفهم هذا الدين من مصادره الأصيلة (كتاب الله وسنة رسوله -
صلى الله عليه وسلم- بفهم سلف الأمة الصالحين) ومعرفة الواقع على حقيقته .
لكن ما يعجب له كل مسلم أن يقوم بذلك الدور في الإساءة إلى الإسلام ودعاته
ولمجاهديه نفر من أمتنا ، هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، لكنهم يعملون بوحي من
أعداء الإسلام والمنضوين تحت لوائهم من رموز العلمانية المعروفين .
إن هؤلاء الشانئين يُعرفون بسيماهم ، ويعرفون بلحن القول ، ومن عملهم
المتواصل في الإساءة إلى الإسلام ودعاته بمناسبة وبغير مناسبة ، وهم الذين يجب
أن يسموا بـ (منافقي العصر) سواء أكانوا من اليسار أو اليمين ، ونلمس آثار ذلك
العداء القابع في صدورهم مما يسودون به صحفهم ومجلاتهم من حرب مستمرة ضد
الإسلام والمسلمين ، تتمثل فيما يلي :
* دعواتهم المستمرة لمصادرة الرأي الإسلامي ومضايقة دعاته ورميهم كذباً
وزوراً بأنهم متطرفون وإرهابيون .
* التخويف المستمر من كل توجه إسلامي بدعوى أنه ظلامية وانحراف عن
الصواب ! بينما يؤيدون كل ناعق من دعاة الباطل .
* العمل المتواصل والتشجيع المستمر لتغريب المجتمعات الإسلامية والدعوة
إلى إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، وادعاء أن أي دعوة لتحكيم الشريعة الإسلامية
في الحياة إنما هي في زعمهم تخلف ورجعية .
* حينما عرف الناس حقيقة دعاة الإسلام وكانوا محل ثقتهم وتأييدهم سمح
أولئك المشبوهون لنفرٍ من بني جلدتهم بالحديث باسم الإسلام لهدمه من الداخل .
* الغضب والحزن لفوز أي اتجاه إسلامي ، سواءً أكان ذلك في انتخابات

عامة أو نقابية أو حتى تفوق أفراده ، وإظهار البغض والحقد الكامن ضدهم بشكل واضح .

إن الإسلام قادم بإذن الله وبوعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مهما حيكت المؤامرات من الأعداء ، والتي ستفشل إن شاء الله ؛ فحينما سقطت آخر خلافة إسلامية يوم انحرفت عن الطريق الصحيح للعقيدة ، فأسقطت ببساطة بمؤامرة محبوكة الأطراف على يد الماسوني (أتاتورك) ، لكن الإسلام يعود اليوم من جديد لتركيا ويفوز حزب الرفاه الإسلامي الاتجاه بالمركز الأول رغم الحرب الشعواء ضده .

ورغم تحالف العلمانيين الذين كشروا عن أنيابهم وأبانوا موقفهم العدائي المكشوف من الإسلام ، إلا أن هذا الفوز ولا شك مؤشر على اتجاه وخطوة على طريق طويل . وتحقيقاً لوعد الله فسيعود الإسلام ، ليس إلى تركيا فقط ، وإنما إلى كل ديار الإسلام التي نُحيت فيها الشريعة الإسلامية ..

سيعود الإسلام رغم أنف كل (منافقي العصر) من أدعياء العلمانية .

 وَعَدَ اللَّهُ الَذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ
[النور : 55] .

دراسات شرعية

فن الوعظ
أهميته وضوابطه

بقلم : عبد الحكيم بن محمد بلال

مدخل :

في لسان العرب : الموعِظة : النصح والتذكير بالعواقب [1] .

والوعظ هو : ذلك الأسلوب الذي يستخدمه الداعية إلى الله إذا أراد نصح الناس وتذكيرهم بالعواقب ، فيرغبهم في الحسنة وثوابها ، ويرهبهم من السيئة وعقابها ، على الوجه الذي يرق له القلب ويبعث على العمل .

ولا غنى للداعية عن استخدام أسلوب الوعظ في دعوته للناس وتربيته لهم ، فقد أمر الله به نبيه -صلى الله عليه وسلم- في دعوته ، فقال (عز وجل) : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ [النحل : 125] ، وقال (سبحانه وتعالى) : ﴿ .. وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ [النساء : 63] ، كما أمر (تعالى) به رسله من قبل ، فكان نهجهم في دعوتهم ، قال (تعالى) : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : 44] ، فالموعظة وسيلة الذكرى ، وسبيل الخشية ، والقرآن كله موعظة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِين ﴾ [يونس : 57] .

فالوعظ أسلوب دعوي له أهمية بالغة في إصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس ؛ ذلك أنه متعلق بطب الأرواح وعلاجها من أمراضها الفتاكة القاتلة ، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، فانبعثت الأعضاء بالأعمال الصالحة مصداقاً على الإيمان .

وكم يكون لكلمة الواعظ من الأثر البالغ في نفوس سامعيها ، خاصة إذا نظرنا لما تيسر في هذه الأزمان من وسائل وأدوات ، تمكّن الواعظ المربي من إيصال كلمته إلى الآلاف المؤلفة ممن لا تتهيأ لهم رؤيته ولا لقاؤه .

ظهور الوعاظ :

نظراً لأهمية الوعظ فقد حرص عليه النبي ، وكان يتخول أصحابه بالموعظة ، ثم حرص عليه الصحابة (رضي الله عنهم) عند تفرقهم في الأمصار ، وكثرة

الداخلين في الإسلام ، ثم شاع ذلك في عصر التابعين ، وبرز منهم : الحسن البصري (رحمه الله) ، فكان له مجلس يعظ الناس فيه .

ومع ظهور التأليف وُجد من اهتم بهذا الجانب وكتب فيه ، كالإمام أحمد الذي ألف كتاباً في الزهد ، ومثله ابن المبارك وهناد ابن السري وغيرهما ، وخصص الإمام البخاري كتاباً في صحيحه أسماه : (الرقاق) ، ومثله الإمام مسلم الذي ضَمّن صحيحه كتاباً بعنوان : (الزهد والرقائق) .

واهتم به من المتأخرين جمّ من العلماء كابن الجوزي ، وابن القيم ، وابن رجب ، وغيرهم كثير .

وفي أواخر عصر التابعين ظهر القصاص والوعاظ ، ثم كثروا ، وقلت عنايتهم بالسنة ، واختلط الحابل بالنابل ، وصار بعض الوعاظ كحاطب ليل لا يدري ما يقول ، أصحيح أم باطل ، صدق أم كذب ؟ ! . كما ذكر ابن الجوزي : (أن الوعاظ كانوا في قديم الزمان علماء فقهاء ... ثم خسّت هذه الصناعة ، فتعرض لها الجهال ، فبَعُد عن الحضور عندهم المميزون من الناس ، وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص ، وما يعجب الجهلة ، وتنوعت البدع في هذا الفن) [2] .

المخاطبون بالوعظ :

يحتاج الناس كلهم إلى المواعظ والتذكير ، صغيرهم وكبيرهم ، جاهلهم وعالمهم ، فاجرهم وتقيهم ، ولو كان أحد في غنية عنها لكان أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فقد كان -صلى الله عليه وسلم- يتعهدهم بالمواعظ ، ويهذب نفوسهم بما يرقق قلوبهم ، والشواهد من السنة متوافرة .

ولكن ينبغي أن يكون خطاب الناس على قدر عقولهم ومداركهم وعلومهم ، فلا يكون الخطاب واحداً لكل أحد ؛ وذلك لسببين :

الأول : تفاوت الناس في الدرجات ، وبالتالي في الواجبات ؛ فقد يجب على العالم ما لا يجب على الجاهل ، ويجب على الغني ما لا يجب على الفقير ، ويجب على القادر القوي ما لا يجب على العاجز الضعيف ، وهكذا ..

الثاني : أن بعض الحديث يكون فتنة إذا كان مما يُساء فهمه ، ولذا قال علي (رضي الله عنه) : (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ !) [3] ، أي : بما يفهمون ، وفي بعض رواياته : (ودعوا ما ينكرون) أي : يشتبه عليهم فهمه ، وقال ابن مسعود : (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) [4] .

أساليب الوعظ :

لا تظن أن الوعظ لا يكون إلا بخطب رنانة ، أو كلام مطوّل يُجمع له الناس ، ويتهيؤون له ، ثم تُطَأطأ الرؤوس ويبدأ الواعظ بسرد موعظته ! ! فكل هذا غير لازم ؛ فقد كان -صلى الله عليه وسلم- يعظ أصحابه بالخطبة ، وقد يعظهم بما يناسب الحال ، فيذكرهم بحقارة الدنيا حين يرى جَدْياً أَسَكّ ، ويذكرهم بنعيم الجنة حين يعجب أصحابه من حلة حرير ، ويذكرهم برحمة الله حين يرى امرأة تبحث عن صبيّها في السبي ، ثم تضمه وترضعه .

وهكذا ... فقد تكون الموعظة قصة تُسرد ، أو مثلاً يُضرب ، أو جملة تقال ، أو فعلاً يحتذى به ، بدون تكلف أو تقعر .

ضوابط الوعظ :

في هذا العصر كثر في الوعاظ الاعتماد على الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي تُذْكَر بصيغة الجزم ، وكذا : الاعتماد على القصص المحكية التي لا زمام لها ولا خطام ، كما نجد من يعتمد الوعظ أسلوباً وحيداً في الدعوة لا ثاني له ، أو يُكثر من وَعْظ الناس كثرةً تملّهم ...

فلهذه الأمور ونحوها تبرز الحاجة الملحة للتنبيه على بعض الضوابط التي ترد الأمر إلى نصابه ، وتجعل الوعظ في صورته الشرعية البهيّة المؤثرة النافعة .

ومن هذه الضوابط ما يلي :

أولاً : الاعتماد على الكتاب والسنة :

يجب أن يكون اعتماد الواعظ في وعظه على كتاب الله (تعالى) ، وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، فهما أصل كل موعظة ، عن النواس بن سمعان (رضي الله عنه) عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، قال : (ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى

الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا
الصراط جميعاً ولا تتفرجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد أن يفتح
شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه ، والصراط :
الإسلام ، والسوران : حدود الله (تعالى) ، والأبواب المفتحة : محارم الله (تعالى) ،
وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله (عز وجل) ، والداعي فوق الصراط :
واعظ الله في قلب كل مسلم) [5] . والواعظ حين يحث الناس على أمر ويُحذِّرهم
من آخر ينبغي أن يبين لهم الدليل ، ولا يجعل حديثه مجرد أوامر ونواهٍ مجردة عن
الدليل ، وعن ذكر المنافع أو المضار للشيء المأمور به أو المنهي عنه ، وكل ذلك
مُتضمن في الكتاب والسنة ، بالتأمل والتدبر لنصوصهما . فإذا ما أراد الواعظ أن
يُثري موعظته ويُبلغ كلامه فإن أمامه مواعظ يعجز الفصحاء عن مجاراتها ،
وينقطع الحكماء دون محاكاتها ، وأين كلام الله من كلام البشر ، وأين كلام من لا
ينطق عن الهوى من كلام عامة البشر ؟ !

وقد يعطي الله (تعالى) بعض خلقه لساناً فصيحاً وبياناً بليغاً ، لكن الموعظة
منه لا تكمل دون الاستشهاد بالكتاب والسنة ؛ فإن لهما أثراً وهيمنة على القلوب .

ثانياً : في الصحيح غنية عن الضعيف :

وعند اعتماد الواعظ الكتاب والسنة ، فإنه سيجد في تفسير القرآن كثيراً من
الروايات الضعيفة ، والإسرائيليات الموضوعة ، وسيجد في كتب الحديث كثيراً من
الأحاديث التي لا تثبت ، وحينئذ : فإن عليه الحيطة والحذر بمراجعة كلام أهل العلم
فيها ، وهذا التحري دليل على صدق الواعظ ؛ ففي حديث مسلم : (كفى بالمرء كذباً
أن يحدث بكل ما سمع) [6] . وقد كان حال الوعاظ في هذا الباب عجباً ، فقد قلّ
فيهم العلم ، وصدق في بعضهم قول ابن مسعود (رضي الله عنه) : (إنكم في زمان
كثير علماؤه ، قليل خطباؤه ، وإن بعدكم زماناً كثير خطباؤه ، والعلماء فيه

قليل) [7] ، وصار كثير منهم لا يهتمون بتمييز القصص والحكايات ، فهمّهم الإتيان بالغريب من الأخبار ، والعجيب من القصص ؛ التي قد ينشدّ لها العوام والجهلة ، وبلغ ببعضهم الحال إلى أن اقترن ذكره بالوضع في الحديث والكذب فيه ؛ حسبة للأجر والثواب ! ، أو تكسباً واسترزاقاً ، وعدّهم أهل الحديث في جملة الوضاعين [8] .

وقد طفحت كتب المواعظ بالقصص المنكرة ، والعجائب المختلقة ، ولهذا حذر الأئمة من أخبار القصاص ورواياتهم ، فألف ابن تيمية كتاباً سماه : (أحاديث القصاص) ، وألف السيوطي كتاباً سماه : (تحذير الخواص من أكاذيب القصاص) ، ولابن الجوزي : (القصاص والمذكرين) [*] ونحوها كثير .

ومن كتب الوعظ التي ينبغي الحذر منها ، حيث كثر فيها الغث :

(الروض الفائق في المواعظ والرقائق) لأبي مدين الحريفيش ، (وروض الرياحين في حكايات الصالحين) لأبي السعادات اليافعي ، و (قرة العيون ومفرح القلب المحزون ، وبستان العارفين ، وتنبيه الغافلين) كلها لأبي الليث السمرقندي ، و (إحياء علوم الدين (لأبي حامد الغزالي [**] .

ولئن أجاز بعض السلف ذكر الحديث الضعيف في أبواب الفضائل ، فإن هذا ليس على إطلاقه ؛ فقد شرطوا له شروطاً ثلاثة :

1- ألا يكون الضعف شديداً .
2- أن يكون الحديث مندرجاً تحت أصل عام .
3- ألا يعتقد عند العمل به ثبوته [9] .

ولا يخفى أن هناك فرقاً بين ذكر الحديث الضعيف والاحتجاج به ؛ فإن ذكره لا يعني إثبات حكم شرعي به [10] .

ثالثاً : تعهد الناس بالموعظة :

النفس تمل وتسأم فيضعف أثر التذكير فيها ؛ وربما كرهته فلم يُنتفع به حينئذ ؛ لذا : كان النبي -صلى الله عليه وسلم- لخبرته بالنفوس يتعهد أصحابه بالنصح والتذكير ، أياماً وأياماً ، ولا يُكثِر عليهم ؛ لئلاّ يملوا ، وكذا كان صحابته الذين تربوا على يديه يمتثلون ذلك ، بل ويوصون به :

فعن عكرمة عن ابن عباس قال : (حدّث الناس كل جمعة مرة ، فإن أبيت فمرتين ، فإن أبيت فثلاث مرات ، ولا تُملّ الناس هذا القرآن ، ولا ألْفينّك تأتي

القوم وهم في حديث من حديثهم ، فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه ..) الحديث [11] .

وعن أبي وائل ، قال : كان عبد الله يعني ابن مسعود يذكّر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن : لوددت أنك ذكّرتنا كل يوم ، قال : (أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملّكم ، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتخولنا بها ؛ مخافة السآمة علينا) [12] .

فعلى الواعظ أن يتفرس في حال الموعوظين ، ويتحيّن نشاطهم ليقبلوا بقلوبهم ، فينتفعوا بإذن الله (تعالى) . ولينظر الداعية في مدى تطبيقه لهذا المبدأ التربوي العظيم ، الذي تُحفظ به الأوقات ، والجهود ، ويُؤْمَنُ به من نفرة الناس وضجرهم ، وله في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خير أسوة ، فقد كان كما قال جابر بن سمرة : (لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هن كلمات يسيرات) [13] ، وقالت عائشة (رضي الله عنها) : (إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه) [14] .

رابعاً : الحذر من المبالغة ، والتهويل ، وتقنيط الناس :

اجتهاداً في محبة الخير للناس والخوف عليهم يقوم الواعظ أحياناً بتضخيم جزاء السيئة ، وعقوبة المعصية ، فيزيد على الوارد فيها أحياناً ، ويهول ويعظم أخرى ، حتى يخيل لسامعه أن عذاب الله نازل به لا محالة ، وأنه لا توبة له ، وأن عمله الصالح لن ينفعه ، وأنه لا حيلة له ! ! .

وقد يحدث العكس أحياناً عند بعض الوعاظ ، فيُهَوّنون من المعصية ويقللون من شأنها ! ! والمنهج الشرعي الوسط : الموازنة بين الترغيب والترهيب ، والخوف والرجاء ، قال الله (تعالى) : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر : 49 ، 50] .

ولهذا أثنى الله على عباده المؤمنين بجمعهم بين هاتين الصفتين الكريمتين ، فقال : ﴿ .. وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. ﴾ [الإسراء : 57] ، وقالت

عائشة (رضي الله عنها (لعبيد بن عمير : (إياك وإملال الناس وتقنيطهم) [15] .

خامساً : البلاغة بلا تكلف :

كانت مواعظ النبي -صلى الله عليه وسلم- بليغة غير متكلفة ، فقد جاء في حديث العرباض (رضي الله عنه) : (وعظنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ...) [16] ، قال ابن رجب : (والبلاغة في الموعظة مستحبة ؛ لأنها أقرب إلى القلوب واستجلابها ، والبلاغة : هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة ، وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها ، وأفصحها وأحلاها للأسماع ، وأوقعها في القلوب ، وكان -صلى الله عليه وسلم- يقصر خطبتها ، ولا يطيلها ، بل كان يبلغ ويوجز) [17] . وفي ظل اهتمام المتحدث ببلاغته في خطبته قد يجنح فيقع في التكلف ، يظنه بلاغة ! .

ومن صور التكلف :

أ- التقوّل لما لا يعلم :

عن مسروق قال : (دخلنا على عبد الله بن مسعود ، قال : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ؛ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم ، قال الله (عز وجل) لنبيه : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ ﴾ [18] .

ب - السجع :

في قول ابن عباس المتقدم : (... فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه ، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فإني عهدت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب) ، قال الغزالي : (المكروه من السجع هو المتكلف ، لأنه لا يلائم الضراعة والذلة ، وإلا ففي الأدعية المأثورة كلمات متوازية لكنها غير متكلفة) [19] .

والحال في الموعظة بالنسبة للسجع كالحال في الدعاء ، فإن فيه في الغالب تكلفاً مُذْهِباً لرونق الموعظة وخشوعها ، إلا الحسن منه ، وهو : ما خلا من التكلف

والتكرار ، وكانت الألفاظ المسموعة حلوة المذاق .

ج - الثرثرة والتشدق والإطناب لغير حاجة :

الثرثرة تعني : كثرة الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق [20] ، عن جابر (رضي الله عنه) أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : (إن من أحبكم إليّ وأقربكم مجلساً مني يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليّ ، وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون ، والمتشدقون ، والمتفيهقون ...) الحديث [21] .

فينبغي للواعظ أن يراعي في وعظه الحال من جهة الإيجاز والإطناب ، وإن كان الأصل : أن المواعظ تكون أميل إلى الإيجاز بعيداً عن التشدق والثرثرة ، واقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- الذي نهى عن ذلك ، وأخذاً بمنهج السلف في ذلك ، وقد تكون للإطناب حاجة من ضعف فهم السامعين ، أو ظن الواعظ صعوبة فهم ما ألقاه عليهم .

سادساً : استغلال المناسبات والأحداث :

كان -صلى الله عليه وسلم- يستغل المناسبة أو الحدث ولو كان يسيراً قد لا يوقف عنده ، ولا يؤبه به وينطلق من خلاله مربياً واعظاً ، والشواهد كثيرة ، منها :

قوله لما دخلت العشر : (ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه العشر ..) [22] .

قوله يوم النحر : (أي شهر هذا ؟ ... فأي بلد هذا ؟ ... فأي يوم هذا ؟ ..) . ثم قال : (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ؛ كحرمة يومكم هذا ؛ في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ...) [23] .

أُهديت له -صلى الله عليه وسلم- حلة حرير ، فجعل أصحابه يمسونها ، ويعجبون من لينها ، فقال : (أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها ...) [24] .

وهكذا ينبغي للواعظ ؛ فلا يحدث الناس عن الزهد في الدنيا أو الموت وهو في مناسبة زواج ! ! أو يحدثهم عن فضل الفقير الصابر وهم أغنياء في زمن سعة ... ونحو ذلك كثير .

وكم يخسر الواعظ حين تمر به مناسبة أو حدث ، ويكون قد هيأ في نفسه
كلاماً من قَبْل ليعظ به الناس ، فيلقي ذلك الكلام ويعرض عن استغلال تلك المناسبة ! إنه يفوّت بذلك رصيداً من الفهم عند السامعين كان يمكنه تحصيله لو استغل تلك
المناسبة أو ذلك الحدث .

ويتحقق ذلك في أبهى صوره عندما يجمع الواعظ بين العلم والحكمة ، فيقدر
لكل أمر قدره ، ويعطيه ما يستحقه .

سابعاً : الهيمنة بالتأثير الوعظي على المخاطبين :

عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً
بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال
رجل : إن هذه موعظة مودع ، فبماذا تعهد إلينا يا رسول الله ؟ قال : (أوصيكم
بتقوى الله ، والسمع والطاعة ...) الحديث .

وعن ابن عمر أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قرأ هذه الآية ذات يوم
على المنبر : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ورسول الله -صلى الله
عليه وسلم- يقول هكذا بيده ، ويحركها ، يقبل بها ويدبر ، يمجد الرب نفسه : أنا
الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله -
صلى الله عليه وسلم- المنبر حتى قلنا : ليخرّن به ! !) [26] .

(ولا يتصف الواعظ الداعية بهذه الهيمنة والتأثير إلا أن يكون مخلص النية ،
رقيق القلب ، خاشع النفس ... وإلا فالمسؤولية كبيرة عند رب العالمين :

روى ابن أبي الدنيا عن الحسن قال : قال رسول الله : (ما من عبد يخطب
خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ، ما أردت بها ؟) قال : فكان مالك إذا حدثني
بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عيني تقرّ بكلامي هذا عليكم ، وأنا أعلم أن الله
سائلي عنه يوم القيامة ما أردت به ؟ ! ، أنت الشهيد على قلبي ، لو أعلم أنه أحب
إليك ، لم أقرأ على اثنين أبداً) [27] .

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه ، وهو متصنع للكلام ليسبي به قلوب
الرجال ، وبين داعية مخلص مكلوم القلب على الإسلام يتكلم بنبضات قلبه ،
ولواعج حزنه وأساه) [28] .
قال ذرّ لأبيه عمر بن ذر : يا أبت : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ،
فإذا تكلمت يا أبتي سمعت البكاء من هاهنا وهاهنا ؟ فقال : يا بني : ليست النائحة
المستأجرة كالنائحة الثكلى [29] . إن الموعظة المخلصة ، إذا وجدت لها نفساً
صافية ، وقلباً متفتحاً متدبراً ، فإنها أسرع للاستجابة ، وأبلغ في التأثير ، وهذا
المعنى قد أكده القرآن في آيات كثيرة ، كقوله (تعالى) : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن
كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : 37] وقال : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : 8] .

ثامناً : الاستشهاد بالقصة الصحيحة المؤثرة :

ينبغي للواعظ استخدام القصص الهادفة المؤثرة ، فهي تشدّ السامع ، وتقرّب
له الهدف ، وهذا هو منهج القرآن ، قال الله (تعالى) : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : 3] ، وهذه طريقة النبي -صلى الله
عليه وسلم- ، والسيرة مليئة بقصص من كانوا قبلنا مما حكاه النبي -صلى الله عليه
وسلم- لأصحابه ، كقصة الذين تكلموا في المهد ، والثلاثة الذين أطبق عليهم الغار ،
وقصة أصحاب الأخدود ، وغيرها كثير .
ومن المسلّمات التربوية : أن التربية بالقدوة لها أثر عظيم ، بل إنها تفوق
الكلام النظري بكثير ، والقدوة قد تكون حاضرة مشاهدة ، وقد تكون محكيّة
بالقصص ، فلا عجب أن تكثر القصص كثرة كاثرة في كتاب الله (تعالى) وسنة نبيه .
ولكن لا بد من انتباه الواعظ إلى أمرين :
الأول : أن عليه كما سبق ذكره أن يتحرى الصحيح منها ، ولا يذكر القصة
لذيوعها وانتشارها بين الناس ، بل لثبوتها .
الثاني : أن عليه ألا يقف عند جزئيات الحوادث التاريخية وتفاصيلها ، ويهمل

الدروس والعبر المستفادة منها ، فإنها هي المقصودة من القصص ، قال (تعالى) :
﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ .. ﴾ [يوسف : 111] . ولكن ينبغي أن تكون الاستفادة باستنباط الدروس والعبر بلا مبالغة ولا تهويل ، بحيث لا يستنبط منها غير ما تنبئ عنه ، وبذلك توضع القصة في موضعها الصحيح .

تاسعاً : الوعظ في موضعه الصحيح :

ركز بعض الناس على التربية بالوعظ تركيزاً شديداً ، وظنّ أنّ الوعظ هو الوسيلة الوحيدة للبناء والتربية ، والصحيح أن الوعظ باب مهم من أبواب التربية ، ولكنه ليس الباب الوحيد ، فأبواب الدين كثيرة ولله الحمد ، كالعلم والتعليم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله .. ونحوها . وهذه الأبواب تكوّن بمجموعها وحدة واحدة متآلفة ، ويجب إعطاء كل باب حقه الشرعي ، في وقته الشرعي دون إفراط أو تفريط .

كما أن الوعظ لا يعد نهاية المطاف ، بل إن الهدف من الوعظ هو إعداد النفس وتزكيتها ، لتَحَمّل تكاليف هذا الدين ، وتَعلّمِ أحكامه ، وحَمْلِ رسالته .

---

(1) لسان العرب ، م6 ص4874 .
(2) انظر : تلبيس إبليس ، ص 123 .
(3) البخاري ، كتاب العلم ، باب 49 .
(4) مسلم ، المقدمة ، ص 11 .
(5) رواه أحمد ، ج4 ص182 ، وانظر صحيح الجامع ، ح 4887 .
(6) مسلم ، ح 5 ، وعند أبي داود ح 4992 : (كفى بالمرء إثماً) .
(7) أخرجه أبو خيثمة في كتاب العلم ، ص 109 .
(8) انظر شرح الألفية للسخاوي ، ج1 ، ص283 .
(9) السابق : ج1ص313 .
(10) انظر الفتاوى ، ج18 ص 66 .
(11) رواه البخاري ، ح 6337 .
(12) رواه البخاري ، ح 70 .
(13) رواه أبو داود ، ح 1107 ، وانظر : صحيح سنن أبي داود ، ح 979 .
(14) البخاري ، ح 3567 .
(15) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للخطيب البغدادي ، ج2 ص 128 .
(16) صحيح سنن الترمذي ، ح 1257 .
(17) جامع العلوم والحكم ، ج2 ص 111 .
(18) رواه البخاري ، ح 4809 .
(19) الفتح ، ج11 ص 143 .
(20) لسان العرب ، م1 ص 477 .
(21) صحيح سنن الترمذي ، ح 1642 .
(22) رواه الترمذي ، ح 757 .
(23) رواه مسلم ، ح 679 .
(24) رواه البخاري عن البراء ، ح 3802 .

(25) رواه مسلم ، ح 2957 .
(26) وصحح أحمد شاكر إسناده ، ح 5414 .
(27) أخرجه في الصمت وآداب اللسان ، ص295 ، رقم 514 ، وقال المنذري في الترغيب ، ج1 ص 125 : بإسناد جيد أهـ ، والمرفوع في ضعيف الجامع ، ح 2502 .
(28) تربية الأولاد في الإسلام ، عبد الله ناصح علوان ، ج2 ص 715 .
(29) الحلية ، لأبي نعيم ، ج5 ص 110 .
(*) وقد شحن ابن الجوزي كتبه الوعظية بالأحاديث الموضوعة ، والقصص الباطلة ، كما ذكر ذلك السخاوي (شرح الألفية ، ج1 ص277) ومن هذه الكتب : المدهش ، وذم الهوى ، والمواعظ والمجالس .
(**) ذكر ابن تيمية كتاب (الإحياء) فأنصفه ، كما هو منهج أهل السنة ، فذكر أن فيه فوائد في أعمال القلوب والأدب ، لكن فيه مواد مذمومة فاسدة : من كلام الفلاسفة وأغاليط الصوفية ، وفيه أحاديث موضوعة كثيرة ، ويمكن الاستفادة بالكتاب مع تخريج الحافظ العراقي ، ولكن ينبغي ألا يشتغل به إلا ذوو القدم الراسخ في العلم الشرعي .

دراسات قرآنية

مصادر التفسير :
(3)
تفسير الصحابة للقرآن
- الحلقة الأولى -

بقلم : مساعد بن سليمان الطيار

بدأ الكاتب هذه السلسلة بالحديث عن مصادر التفسير ، وبين المقصود بها ، ثم تحدث عن تفسير القرآن بالقرآن ، ثم بالسنة ، محرّراً المصطلحات وذاكراً نماذج من النصوص المندرجة تحتها ، وحديثه في هذه الحلقة وما بعدها عن تفسير الصحابة (رضي الله عنهم) .

- البيان -

الصحابة (رضوان الله عليهم) خِيَرَةُ الله (سبحانه) لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ، جعلهم أنصار دينه ، ووزراء نبيّه -صلى الله عليه وسلم- ، وهم أرقّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأبعدهم عن التكلف ، حفظ الله بهم الدين ، ونشره بهم في العالمين ، وكانوا في علمه بين مُكْثِرٍ ومُقلّ .

قال مسروق : (لقد جالست أصحابَ محمد -صلى الله عليه وسلم- فوجدتهم كالإخاذ (الغدير) ، فالإخاذ يروي الرجل ، والإخاذ يروي الرجلين ، والإخاذ يروي العشرة ، والإخاذ يروي المئة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ، فوجدت عبد الله ابن مسعود من ذلك الإخاذ) [1] .

ولِما كان لهم من الصحبة والقرب من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومعرفة أحواله ، فإن لأقوالهم تقدّماً على غيرها عند أهل العلم ، فتجدهم يعتمدون عليها في بيان الدين ، ويتخيّرُونَ من أقوالهم إذا اختلفوا ، غير خارجين عنها إلى غيرها [2] .

هذا ، وقد تميّزت أقوالهم بالعمق من غير تكلّف ، ومن نظر في تفسيراتهم ووازنها بأقوال المتأخرين عَرَفَ صدق هذا القول .

ولقد كان من أبرز مَنْ أظهر هذه الفكرة ، وبيّن ما للصحابة من مزيّة في

عباراتهم التفسيرية الإمامُ ابن القيم في كتبه ، ومن ذلك قوله : (... فعاد الصواب
إلى قول الصحابة ، وهم أعلم الأمّة بكتاب الله ومُراده) [3] .

أهمية تفسير الصحابة :

وقد ذكر العلماء أسباباً تدلّ على أهمية الرجوع إلى تفسيرهم ، وهذه الأسباب كالتالي :

1- أنهم شهدوا التنزيل ، وعرفوا أحواله :

لقد كان لمشاهدتهم التنزيل ، ومعرفة أحواله أكبر الأثر في علوّ تفسيرهم وصحته ، إذ الشاهد يدرك من الفهم ما لا يدركه الغائب .

وفي حجيّةِ بيان الصحابة للقرآن ، فيما لو اختلفوا ، قال الشاطبي : (وأما الثاني : مباشرتهم للوقائع والنوازل ، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنّة ، فهم أقْعَدُ في فَهْمِ القرائن الحالية ، وأعرف بأسباب التنزيل ، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك ، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب .

فمتى جاء عنهم تقييدُ بعض المطلَقات ، أو تخصيص بعض العمومات ، فالعمل عليه على الصواب ، وهذا إن لم ينقل عن أحدهم خلاف في المسألة ، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية) [4] .

ومعرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن ؛ لأن الجهل بأسباب النزول مُوقِعٌ في الشّبَه والإشكالات ، ومُورِدٌ للنصوص الظاهرة مَورِدَ الإجمال حتى يقع الاختلاف .

وإنما يقع ذلك ؛ لأن معرفة أسباب النزول بمنزلة مقتضيات الأحوال التي يُفْهَمُ بها الخطاب ، وإذا فات نقل بعض القرائن الدّالة فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شيءٍ منه .

ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكلٍ في هذا النمط ، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بدّ ، ومعنى معرفة السبب هو معنى مقتضى الحال [5] .

إن ممّا يدلّ على ما سبق من الكلام : ما رواه أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : (أُتيَ برجلٍ من المهاجرين الأولين وقد

شرب الخمر فأمر به عمر أن يُجلد ، فقال : لِمَ تجلدني ؟ ! بيني وبينك
كتاب الله ،
قال : وفي أيّ كتاب الله تجد أن لا أجلدك ؟ .
قال : فإن الله (تعالى) يقول في كتابه : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا .. ﴾ [المائدة : 93] ، فأنا من الذين آمنوا
وعملوا
الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا ؛ شهدت مع رسول الله : بدراً ، وأحداً ،
والخندق ،
والمشاهد .
فقال عمر : ألا تَرُودّن عليه ؟
فقال ابن عباس : هؤلاء الآيات نزلت عذراً للماضين ، وحجّة على
الباقين ،
عذراً للماضين ؛ لأنهم لَقُوا الله قبل أن حرّم الله عليهم الخمر ، وحجة
على الباقين ؛
لأن الله يقول : ﴿ .. إنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ .. ﴾ [المائدة :
90]
[المائدة : 90] . حتى بلغ الآية الأخرى) [6] .
فانظر كيف خفي على هذا البدريّ (رضي الله عنه) حكم هذه الآية لمّا
لم يكن
يعلم سبب نزولها ؟ وكيف لم تكن مشكَلة عند من علم سبب نزولها ؟
فنزلها منزلتها ، وبيّن معناها .
2- أنهم عرفوا أحوال من نزل فيهم القرآن :
يقول الشاطبي في بيان أهمية معرفة الأحوال في التفسير : (ومن
ذلك :
معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل ،
وإن لم
يكن ثَمّ سبب خاص ، لا بدّ لمن أراد الخوض في علم القرآن منه ، وإلا
وقع في
الشّبه والإشكالات التي يتعذّر الخروج منها إلا بهذه المعرفة) [7] .
أ -ومن الأمثلة التي تدلّ على أهمية معرفة أحوالهم في التفسير :
ما رواه
البخاري في تفسير قوله (تعالى) : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن
رَّبِّكُمْ .. ﴾ [البقرة : 198] عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال :
(كانت عُكاظٌ ومجنّةٌ
وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فتأثّموا أن يَتّجِروا في المواسم ،
فنزلت ﴿ لَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴾ في مواسم الحج) [8] .
أ- ومثله ما رواه البخاري عن عائشة (رضي الله عنهما) قالت :
(كانت
قريش ومن دَانَ دينها يقفون المزدلفة ، وكانوا يسمّون الحُمْسُ ، وكان
سائر العرب

يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيّه -صلى الله عليه وسلم- أن يأتي
عرفات ، ثُمّ يقفَ بها ، ثُمّ يُفِيضَ منها ، فذلك قوله (تعالى) : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ
أَفَاضَ النَّاسُ .. ﴾ [البقرة : 199] [9] .
أ- ومثله ما رواه البخاري عن ابن المنكدر ، قال : (سمعت جابراً (رضي الله
عنه) قال : كانت اليهود تقول : (إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، فنزلت
﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ .. ﴾) [10] .

3- أنهم أهل اللسان الذي نزل به القرآن :

لما كان القرآن نزل بلغتهم ، فإنهم أعرف به من غيرهم ، وهم في مرتبة
الفصاحة العربية ، فلم تتغيّر ألسنتهم ، ولم تنزل عن رتبتها العليا في الفصاحة ،
ولذا فَهُم أعرف من غيرهم في فهم الكتاب والسنة ، فإذا جاء عنهم قول أو عمل
واقع موقع البيان صحّ اعتماده من هذه الجهة [11] .
كما أن ما نقل عنهم من كلام أو تفسير فإنه حجّة في اللغة ، وفيه بيان لصحّة
الإطلاق في لغة العرب ، قال ابن حجر : (استشكل ابن التين قوله [12] : (ناساً)
من الجن) من حيث إن الناس ضدّ الجنّ .
وأجيب بأنه على قول من قال : إنه من نَاسَ : إذا تحرك ، أو ذُكر للتقابل ،
حيث قال : (ناس من الناس) ، (وناساً من الجن) ويا ليت شعري ، على من
يعترض ؟ !) [13] .

4- حسن فهمهم :

إن من نَظَرَ في أقوال الصحابة في التفسير متدبراً لهذه الأقوال ، ومتفهماً
لمراميها ، وعلاقتها بتفسير الآية ، فإنه سيتبيّن له ما آتاهم الله من حسن البيان عن
معاني القرآن ، من غير تكلّفٍ في البيان ، ولا تعمّق في تجنيس الكلام ، بل تراهم
يُلْقون الألفاظ بداهة على المعنى ، فتصيب منه المراد .
وكان مما عزّز لهم حسن الفهم : ما سبق ذكره من الأسباب التي دعت إلى
الرجوع إلى تفسيرهم من : مشاهدة التنزيل ، ومعرفة أحوال من نزل فيهم القرآن ،
وكونهم أصحاب اللسان الذي نزل به القرآن ، مع ما لهم من معرفة بأحوال صاحب

الشريعة -صلى الله عليه وسلم- ، مما كان يعينهم على فهم المراد وحسن الاستنباط ، قال ابن القيم : (قال الحاكم أبو عبد الله ، في التفسير من كتاب المستدرك : ليعلم
طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل ، عند الشيخين
حديث مسند) [14].

وقال في موضع آخر من كتابه : (هو عندنا في حكم المرفوع) [15].

وهذا وإن كان فيه نظرٌ ، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم ،
فهم أعلم الأمة بمراد الله (عز وجل) من كتابه ؛ فعليهم نزل ، وهم أول من خوطب
به من الأمة ، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول -صلى الله عليه وسلم- علماً وعملاً ، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة ، فلا يُعدَلُ عن تفسيرهم ما وجد إليه
سبيل) [16].

إن هذه المزيّة تُوجِبُ على دارسِ التفسير أن يرجع إلى أقوالهم ، وأن يَفْهَم
تفسيراتِهم ، ليَعْتَمِد عليها في التفسير ، ويبنيَ عليها مسائل الآيات وفوائدها .

غير إن كثيراً ممن يَدْرُسُ التفسير أو يُدَرّسُه لا يهتم بإيراد أقوال
الصحابة [17] ، وكثيراً ما تراه يكتفي بأن ينسب التفسير إلى المتأخرين من المفسرين كالزجاج والزمخشري وابن عطية والقرطبي وأبي حيان وابن كثير ... وغيرهم .

إن في هذا المسلك ما يقطعُ على طالب العلم شرف الوصول إلى علوم هؤلاء
الصحابة وأفهامهم ، بل قد يجعله ينظر إلى أقوالهم نظر المقلّلِ من شأنها ، ويرى أن
تفسيراتهم سطحيّة ، لا عمق فيها ، ولا تقرير ! ! .

وهذا خطأ مَحْضٌ ، ومجانبة الصواب ، وإنما كان سبيل أهل العلم الراسخين
فيه أنهم (يتكثّرون بموافقة الصحابة) ، وانظر كم الفرق بين أن يُقال : هذا قول ابن
عباس في الآية ، أو يقال : هذا قول الزجاج أو ابن عطية أوغيرهم في الآية .

فانظر إلى ما ستميل إليه نفسك ؟ ، وأي قول سيطمئن له قلبك ؟ .

5- سلامة قصدهم :

لم يقع بين الصحابة خلافٌ يُؤَثّر في علمهم ، بحيث يوجّه آراءهم العلمية إلى

ما يعتقدونه ، وإن كان مخالفاً للحق ، بل كان شأن الخلاف بينهم إظهار الحق ، لا
الانتصار للنفس أو المذهب الذي ذُهِبَ إليه .
لقد ظهر خلاف أمرهم في الخلاف فيمن بعدهم من أصحاب العقائد الباطلة ؛
كالخوارج ، والمرجئة ، والجهمية ، والمعتزلة ، وغيرهم ، فظهر في أقوالهم مجانبةُ
الحق ، وكثر الخلاف بسبب كثرة الآراء الباطلة ، مما جعل القرآنَ عُرضةً
للتحريف والتأويل ، إذ كلّ يصرفه إلى مذهب ، وهذا مما سلم منه جيل الصحابة ،
فلم يتلوّث بمثل هذه الخلافات .
ولهذا جاء تفسيرهم بعيداً عن إشكالات التأويل ، وصرف اللفظ القرآني إلى ما
يناسب المذهب ، أو غيرها من الانحرافات في التفسير .

---

(1) المدخل إلى السنن الكبرى ، ص 16 .
(2) انظر : المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي ، ص109 110 .
(3) انظر : بدائع التفسير ، ج2 ص216 ، وج3 ص313 ، 402 ، 404 ، وشفاء العليل ، ص54 .
(4) انظر : الموافقات بتحقيق محيي الدين عبد الحميد ، ج3 ص 218 219 .
(5) الموافقات ، ج3 ص 225 (بتصرف) .
(6) الدرر المنثور ، ج3 ص 161 ، وانظر : المستدرك .
(7) الموافقات ، ج3 ص 229 ، وقد أحال في هذه المسألة على النوع الثاني من المقاصد (ج2ص44) ، والموافقات ، ج3 ص 227 .
(8) انظر : فتح الباري ، ج8 ص34 .
(9) انظر : فتح الباري ، ج8 ص 35 .
(10) انظر : فتح الباري ، ج8 ص 37 .
(11) انظر : الموافقات ، ج3 ص 218 .
(12) يعني ابن مسعود (رضي الله عنه) .
(13) فتح الباري ، ج8 ص249 .
(14) المستدرك ، ج2 ص258 .
(15) المستدرك .
(16) بدائع التفسير ، ج3 ص404 .
(17) وأيضاً التابعين وأتباعهم ممن لهم عناية بالتفسير .

مقال

مسألة القدر المشترك
من خلال كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية
وأثرها في الإيمان بالغيب

بقلم : سامي السويلم

مما فطر الله عليه الخلق : القدرة علي الجمع بين المتشابهات ، والتفريق بين المتغايرات ؛ فالطفل مثلاً : يدرك أن أباه (رجل) ، كما أن عمه كذلك ، وإمام المسجد كذلك ، .. وهكذا ، لكنه يدرك أيضاً إن أباه ليس عمه ، وليس إمام الحي ، أي إن الأب والعم والإمام يشتركون في بعض الخصائص ، كالرجولة ، لكنهم يختلفون في أشياء كثيرة . ولفظ (رجل) يقتصر على معنى يشترك فيه هؤلاء ، أي : على (قدر مشترك) بينهم .

ومن زار مكة وطيبة والرباط يجد قواسم مشتركة بين هذه المدن ، وبموجب هذا الاشتراك نطلق على كل منها لفظ (مدينة) ، فهذه مدينة الرباط ، ومدينة مكة ، ومدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، مع أننا ندرك جيداً الاختلاف الكبير بين هذه المدن ؛ فلفظ (مدينة) إذن يشير إلى معنى موجود في كل من هذه المدن الثلاث ، وإن اختلفت فيما بينها ، حتى في درجة المدنية وتطورها .

ونحن نرى الثلج فنجده أبيض ، ونرى السحاب والبيض ، فنجد كل واحد منهما أبيض ، مع أن بياض الثلج يختلف عن بياض السحاب ، عن بياض البيض ، .. وهكذا . أي إن لفظ (أبيض) يدل على معنى مشترك بين صفة البياض في هذه الأشياء ، وإن تفاوت مقدار هذا المعنى من شيء إلى آخر .

من الأمثلة المتقدمة نستنتج أن الله (تعالى) وهب العقل البشري قدرة فذة على إدراك أوجه الشبه بين أشياء متغايرة ومتباينة ، كما ألهمه استعمال ألفاظ تسمى : (الألفاظ المتواطئة) تشير إلى المعاني المشتركة ، دون أن يستلزم ذلك إنتفاء المغايرة أو التفاوت بين ما تطلق عليه هذه الألفاظ ، فهذه المعاني المشتركة هي ما يسمى : (القدر المشترك) ، ويسمى التفاوت الحاصل : (القدر المميّز) ، وهذه القدرة ، التي

تبدو لنا بدهية ، هي في نظري خاصة بديعة ، تشهد لخالقها بالعظمة والجلال .
إن هذه المقدمة البدهية ، التي قد لا يجد القارئ لأول وهلة جديداً فيها ، تمثل
أساساً مهمّاً تصاغ من خلاله عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد العلم والقول ،
وكون القارئ لا يجد فيها جديداً يؤكد انفراد عقيدة أهل السنة والجماعة بالجمع بين
اليسر والعمق .

توظيف القدر المشترك في إدراك الغيب :

فالإنسان يستطيع أن يستخدم هذه الخاصية في إدراك أشياء لم يرها قط ، ولم
يعاينها من ذي قبل : فإذا سمع الطفل مثلاً عن (رجل) ينظم سير السيارات يسمى
(رجل المرور) ، أدرك شيئاً من صفاته ، وإن لم يكن قد رآه من قبل ، وإن لم
يستوعب صفته كما يستوعب صفة أبيه وعمه وإمام المسجد ؛ فهو يدرك أن رجل
المرور فيه شبه من أبيه وعمه وإمام الحي ، وهذا الشبه استنتجه الذهن من لفظ
(رجل) الذي يطلق أيضاً على هؤلاء .
وهكذا : إذا سمعنا عن مدينة لم نرها من قبل (طنجة مثلاً (فستتكون لدينا
صورة عن هذه المدينة ، استطعنا أن نرسم هذه الصورة من معرفتنا للفظ (مدينة) ،
فهذا اللفظ نعلم أنه يدل على معانٍ مشتركة توجد في مكة وطيبة والرباط . لكن
الصورة تظل عامة لأننا ندرك أنه كما اختلفت الرباط عن مكة عن طيبة ، فقد
تختلف طنجة عن هذه المدن ، وتتميز عنها بما لا يوجد في المدن الأخرى .
إذن ، فالعقل البشري يدرك أوجه الشبه بين الأشياء التي يراها ويخبرها ،
ويطلق على هذه الأوجه والمعاني المشتركة ألفاظاً مطلقة ، فإذا سمع هذا اللفظ
مضافاً إلى شيء لم يره من قبل أدرك ثبوت القدر المشترك لذلك الشيء الغائب ،
دون أن يستلزم ذلك نفس ما قد يوجد من أوجه الاختلاف أو التفاضل بينه وبين ما
رآه من قبل .

أثر المسألة في الإيمان بالغيب :

ويدخل في ذلك ما أخبرنا به الله (تعالى (ورسوله -صلى الله عليه وسلم- مما
لم نشاهده وذلك مثل : - الصفات الإلهية ، والجنة والنار ، والصراط ، والحوض ،
والميزان ، والملائكة والروح ، ... ونحوها ، فكيف يمكن أن يدرك العقل البشري
صفةً ما غاب عنه ، وهو لم يره قط ؟ ! .
الجواب يتلخص في تلك الخاصية الفذة التي وهبها الله (تعالى) للعقل البشري ؛ فنحن نفهم معنى (أجنحة) في قول الله (تعالى) : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ .. ﴾ [فاطر : 1]
مما تكون لدينا من معنى عام للفظ (جناح) في إطلاقاته المألوفة لدينا : فهناك جناح
النسر ، وجناح الحدأة ، وجناح الحمام ، وجناح العصفور ، وجناح الذباب ، وجناح
البعوض .
فمن هذه الاستعمالات المختلفة للفظ (جناح) يستنتج الذهن معنًى عامّاً ، هو
القدر المشترك بين مدلوله في تلك الأشياء المختلفة التي رأيناها وعرفناها ، فإذا
أخبرنا الله (تعالى) أن للملكِ جناحاً ، استنتج الذهن مفهوماً عامّاً مطلقاً عن جناح
الملك من خلال إثبات ذلك القدر المشترك الذي استخلصناه من استعمالات هذا اللفظ
فيما نشاهده ، لكن المفهوم يظل مطلقاً لأننا ندرك أن طبيعة الملك تختلف عن طبيعة
الطيور والإنسان وسائر ما قد يستعمل له لفظ (جناح) فيما نشاهده من مخلوقات ،
تماماً كما تختلف هذه المخلوقات التي نشاهدها فيما بينها ، مع ثبوت القدر المشترك
للفظ فيها جميعاً ، وكلما كان الإنسان أكثر إحاطة بهذا الاختلاف في المشهودات ،
مع ثبوت القدر المشترك بينها ، كان أكثر قدرة على إدراك الاختلاف بينها وبين ما
غاب عنه مما وصف باللفظ نفسه .
وكذلك القول في سائر أوصاف الملائكة ، كالصعود والنزول والكلام وغيرها ، بل وفي سائر أمور الغيب .
ولأدع الحديث لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) حول هذه النقطة :
(وتمام الكلام في هذا الباب أنك تعلم : أنا لا نعلم ما غاب عنا إلا بمعرفة ما

شهدناه ، فنحن نعرف أشياءً بحسّنا الظاهر أو الباطن [1] وتلك معرفة معينة
مخصوصة ، ثم إنا بعقولنا نعتبر الغائب بالشاهد ، فيبقى في أذهاننا قضايا عامة
كلية ، ثم إذا خوطبنا بوصف ما غاب عنا لم نفهم ما قيل لنا إلا بمعرفة
المشهود لنا ، فلولا أنا نشهد من أنفسنا جوعاً وعطشاً وشبعاً وريّاً ،
وحبّاً وبغضاً ، ولذةً وألماً ،
رضًى وسخطاً ، لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا ذلك وأخبرنا به عن
غيرنا ، وكذلك لو لم نعلم ما في الشاهد : حياةً ، وقدرةً ، وعلماً ، وكلاماً ، لم نفهم
ما نخاطب به إذا وصف الغائب عنا بذلك ، وكذلك لو لم نشهد موجوداً لم نعرف
غائباً) .
(فلا بد فيما شهدناه وما غاب عنا من قدر مشترك هو مسمى اللفظ
المتواطئ ، فبهذه الموافقة والمشاركة والمشابهة والمواطأة نفهم الغائب ونثبته ، وهذا خاصة
العقل ، ولولا ذلك لم نعلم إلا ما نحسه ، ولم نعلم أموراً عامة ولا أموراً غائبة عن
أحاسيسنا الظاهرة والباطنة ، ولهذا من لم يحس الشيء ولا نظيره لم يعرف حقيقته) .
(ثم إن الله (تعالى) أخبرنا بما وعدنا به في الدار الآخرة من النعيم
والعذاب ، وأخبرنا بما يؤكل ويشرب وينكح ويفرش وغير ذلك ، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك
في الدنيا لم نفهم ما وعدنا الله به ، ونحن نعلم مع ذلك أن تلك الحقائق ليست مثل
هذه حتى قال ابن عباس (رضي الله عنه) : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا
الأسماء ، وهذا تفسير قوله : ﴿ .. وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً .. ﴾ [البقرة : 25]
على أحد الأقوال .. فبين هذه الموجودات في الدنيا وتلك الموجودات في الآخرة مشابهة وموافقة من
بعض الوجوه ، وبه فهمنا المراد وأحببناه ورغبنا فيه ، أو أبغضناه ونفرنا عنه .
وبينهما مباينة ومفاضلة لا يُقدّر قدرُها في الدنيا ...) .
(فإذا كان هذا في هذين المخلوقين ، فالأمر بين الخالق والمخلوق أعظم ،
فإن مباينة الله لخلقه وعظمته وكبريائه وفضله : أعظم وأكبر مما بين مخلوق
ومخلوق ، فإذا كانت صفات ذلك المخلوق مع مشابهتها لصفات هذا المخلوق ،
بينهما من التفاضل والتباين ما لا نعلمه في الدنيا ... فصفات الخالق (عز وجل)

أولى أن يكون بينها وبين صفات المخلوق من التباين والتفاضل ما لا يعلمه إلا الله
(تبارك وتعالى) ... [و] قد علمنا بطريق خبر الله (عز وجل) عن نفسه ... أن الله
يوصف بصفات الكمال ، موصوف بالحياة والعلم والقدرة ... ولولا أن هذه الأسماء
والصفات تدل على معنى مشترك كلي ، يقتضي من الموافقة والمشابهة ما به تُفهم
وتُثبت هذه المعاني لله : لم نكن قد عرفنا عن الله شيئاً . ولا صار في قلوبنا إيمان
به ، ولا علم ولا معرفة ولا محبة ، ولا إرادة لعبادته ودعائه وسؤاله ومحبته
وتعظيمه ؛ فإن جميع الأمور لا تكون إلا مع العلم ، ولا يمكن العلم إلا بإثبات تلك
المعاني التي فيها من الموافقة والمواطأة ما به حصل لنا ما حصل من العلم لما غاب
عن شهودنا) .
(ومن فهم هذه الحقائق الشريفة والقواعد الجليلة النافعة حصل له من العلم
والمعرفة والتوحيد والإيمان ، وانجاب عنه من الشبه والضلال والحيرة ما يصير به
في هذا الباب من الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ومن
سادة أهل الإيمان ...) إلى آخر كلامه (رحمه الله) ، وهو نفيس للغاية [2] .

أدلة الكتاب والسنة على إثبات القدر المشترك :

ليس المقصود هنا الاستدلال على إثبات قدرة العقل على استخلاص القدر
المشترك ، فهذه خاصة بدهية ، إنما المقصود الاستدلال على أن الله (تعالى) أثبت
في القرآن وعلى لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- القدر المشترك بين الصفات
الإلهية وصفات المخلوقين ، كما أثبت القدر المميّز بينهما ، وقد جاءت الأدلة على
أنواع :

1- أول هذه الأنواع : ما ذكره الأئمة مما وقفت عليه كابن خزيمة في
التوحيد [3] ، وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد على المريسي [4] ، وابن ت يمية في مواضع متعددة من كتبه
، كالرسالة التدمرية وغيرها ، قال (رحمه الله)
: (فإن ا لله سمى نفسه بأسماء ، وسمى بعض عباده بأسماء ، وليس
المسمى كالمسمى ، فسمى نفسه حيّاً عليماً قديراً ، ورؤوفاً رحيماً ،

عزيزاً حكيماً ، سميعاً بصيراً ... كقوله : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .
وقال : - ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .
وقد سمى بعض عباده حيّاً فقال : - ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِ ﴾ ، وبعضهم عليماً بقوله : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ ، وبعضهم حليماً بقوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ ، وبعضهم رؤوفاً رحيماً بقوله : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وبعضهم سميعاً بصيراً بقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ .
ومعلوم أنه لا يماثل الحيّ الحيّ ، ولا العليمُ العليمَ ، ولا العزيز العزيزَ ، ولا الرؤوف الرؤوفَ ، ولا الرحيمُ الرحيمَ) [5] .
2- عطف الخلق على الرب (تعالى) في مقام الفاعل . وذلك في مثل قول الله (تعالى) : ﴿ شهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً ﴾ ، وقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ ، وقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ونحوها .
فعطف الخلق على الرب (تعالى) في مقام الفاعل دليل على اشتراكهما في أصل الفعل ، وإلا لما صح العطف ، فلا يصح أن يقال : شهد زيد وعمرو ، أو : جاء زيد وعمرو ، وزيد لم يشهد أو لم يجئ ، بل لا بد من أن يكون الجميع قد شهد وجاء ، وإن كانت شهادةُ أحدهما أو مجيئُه قد تفضل شهادةَ الآخر ومجيئَه ، ومما يوضح ذلك : أن الله (تعالى) عطف أولي العلم على الملائكة في قوله : ﴿ شِهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ ﴾ فدل على اشتراكهما في أصل الشهادة ، مع أن شهادة أولي العلم ليست مماثلة لشهادة الملائكة ، فكذلك شهادة هذين لا تماثل شهادة الرب (تعالى) ، وإن اشتركوا في أصل المعنى .
3- الجزاء من جنس العمل ، مثل قوله (تعالى) : - ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ

الإِحْسَانُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ ﴾ وقوله : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وقوله : - ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى ﴾ ، وقوله :
﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقِيلَ اليَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ،
وقوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾
وفي صحيح البخاري قوله (عليه الصلاة والسلام) : (لا توعي فيوعي الله عليكِ) ،
وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو
(رضي الله عنهما) أن النبي قال : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في
الأرض يرحمكم من في السماء) ، ونحوها .

إثبات القدر المشترك ليس تمثيلاً :

قد يتبادر للذهن أن في إثبات قدر مشترك بين صفات الرب (جل وعلا)
وصفات المخلوقين تشبيه أو تمثيل لصفات الله (تعالى) بصفات خلقه ، ويخلط كثير
من الناس في هذا المقام بين مفهوم (التمثيل) ومفهوم (التشبيه) . فالأول هو الذي
نفته النصوص الشرعية، كقوله (تعالى) :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾
. بخلاف لفظ (التشبيه) فإنه لفظ مجمل ، قد يراد به التمثيل ، وقد يراد به ما
ليس تمثيلاً ، وقد فرّق (تعالى) بينهما في قوله : ﴿ وَقَالَ الَذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا
اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . قال شيخ
الإسلام : (فوصفَ القولين بالتماثل ، والقلوب بالتشابه لا بالتماثل ، فإن القلوب وإن
اشتركت في هذا القول فهي مختلفة لا متماثلة ، وقال النبي : (الحلال بيّن والحرام
بيّن وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس) ، فدل على أنه يعلمها بعض
الناس ، وهي في نفس الأمر ليست متماثلة بل بعضها حرام وبعضها حلال) [6] .

فالتشابه ، إذا أطلق ، يتضمن الموافقة من بعض الوجوه دون بعض ، أما
المماثلة فهي الموافقة من جميع الوجوه ، بحيث يستوي الشيء ومثله في كل جانب
ويجوز ويمتنع على أحدهما من الخصائص واللوازم . فالمحذور شرعاً هو التمثيل ،
أما (التشبيه) فإن أريد به التمثيل فهو ممتنع ، وإن أريد به الموافقة من بعض
الوجوه دون بعض فليس في ذلك محذور ، وذلك أن (جماهير العقلاء يعلمون أنه ما
من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك ، ونفس ذلك القدر المشترك ليس هو نفس التمثيل
والتشبيه الذي قام الدليل العقلي والسمعي على نفيه ، وإنما التشبيه الذي قام الدليل
على نفيه ما يستلزم ثبوت شيء من خصائص المخلوقين لله (سبحانه وتعالى) إذ هو
(سبحانه) ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله) [7] .

(وشبه الشيء بالشيء يكون لمشابهته له من بعض الوجوه ، وذلك لا
يقتضي التماثل الذي يوجب أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع . وإذا قيل هذا حي
عليم قدير ، وهذا حي عليم قدير ، فتشابها في مسمى الحي والعليم والقدير ، لم
يوجب ذلك أن يكون هذا المسمى مماثلاً لهذا المسمى من كل وجه ، بل هنا ثلاثة
أشياء :

أحدها : القدر المشترك الذي تشابها فيه ، وهو معنى كلي لا يختص به
أحدهما ، ولا يوجد كليّاً عامّاً إلا في علم العالم [8] .

الثاني : ما يختص به هذا ، كما يختص الرب بما يقوم به من الحياة والعلم
والقدرة .

الثالث : ما يختص به ذاك ، كما يختص به العبد ، من الحياة والعلم والقدرة ،
فما اختص به الرب (عز وجل) لا يشركه فيه العبد ، ولا يجوز عليه شيء من
النقائص التي تجوز على صفات العبد ، وما يختص به العبد لا يشركه فيه الرب ،
ولا يستحق شيئاً من صفات الكمال التي يختص بها الرب (عز وجل) . وأما القدر

المشترك كالمعنى الكلي الثابت في ذهن الإنسان ، فهذا لا يستلزم خصائص الخالق
ولا خصائص المخلوق ، فالاشتراك فيه لا محذور فيه) [9] .
(والقدر المشترك المطلق ، كالوجود والعلم والحقيقة ونحو ذلك ، لا يلزمه
شيء من صفات النقص الممتنعة على الله (تعالى) ، فما وجب للقدر المشترك لا
نقص فيه ولا عيب . وما نُفي عنه فلا كمال فيه ، وما جاز له فلا محذور في
جوازه . وأما ما يتقدس الرب (تعالى) ويتنزه عنه من النقائص والآفات ، فهي ليست من
لوازم القدر المشترك الكلي المطلق أصلاً ، بل هي من خصائص المخلوقات
الناقصة ، والله (تعالى) منزه عن كل نقص وعيب ، وهذه معانٍ شريفة بُسطت في
غير هذا الموضع) [10] .

نفي القدر المشترك يستلزم الإلحاد [*] :

ومما يوضح ذلك أنه (ما من شيئين إلا وهما متفقان في أمر من الأمور ، ولو
أنه في كونهما موجودين ، وذلك الذي اتفقا فيه لا يمكن نفيه إلا بنفي كل
منهما) [11] ، فلو نفى أحدٌ القدر المشترك بين صفات الرب (تعالى)
وصفات الخلق ، ظنّاً منه أن ذلك من التمثيل أو التشبيه المحظور ،
لزمه نفي وجود الرب (تعالى) بالكلية ، (فإن من نفى بعض ما وصف
الله به نفسه ، كالرضا والغضب والمحبة والبغض ونحو ذلك ، وزعم أن
ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم ، قيل له : أنت تثبت له الإرادة والكلام
والسمع والبصر ، مع أن ما تُثبته ليس مثل صفات المخلوقين ، فقل
فيما أثبتَّه مثل قولك فيما نفيته وأثبتَهَ الله ورسوله ، إذ لا فرق بينهما
.

فإن قال : أنا لا أثبتُ شيئاً من الصفات .

قيل له : فأنت تثبتُ له الأسماء الحسنى ، مثل : حي وعليم وقدير ، والعبد
يتسمى بهذه الأسماء ، وليس ما تثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما تُثبت للعبد ،
فقل في صفاته نظير قولك في أسمائه .

فإن قال : وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى ، بل أقول : هي مجاز ، أو هي
أسماء لبعض مبتدعاته ، كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة .

قيل له : فلا بد أن تعتقد أنه حق قائم بنفسه ، والجسم موجود قائم بنفسه ،
وليس هو مماثلاً) [12] .

فليس له بعد ذلك إلا أن يقول : أنا لا أثبت شيئاً ، بل أنكر وجود الرب

(تعالى) ، وإلا كان متناقضاً ، وهذا هو الإلحاد ، ولو قال ذلك (قيل له : فمن المعلوم
بالمشاهدة والعقل وجودُ موجودات ، ومن المعلوم أيضاً أن منها ما هو حادث بعد أن
لم يكن ، كما نعلم أنا حادثون بعد عدَمِنا ، وأن السحاب حادث ، والمطر والنبات
حادث ... ومن المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لا بد له من مُحدِث ، وهذه
قضية ضرورية معلومة بالفطرة ... ولهذا قال (تعالى) : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ
أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ ... والمحدَث لا بد له من قديم ... والممكن لا بد له من
واجب ... فقد لزم أن الوجود فيه موجود قديم واجب بنفسه ، وموجود
ممكن محدَث كائن بعد أن لم يكن ، وهذان قد اشتركا في مسمى الوجود) [13] .

(فعُلم بهذه البراهين البينة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه ، فمن نفى ما
اتفقا فيه كان معطلاً قائلاً للباطل ، ومن جعلهما متماثلين كان مشبهاً قائلاً للباطل ،
والله أعلم) [14] .

تطبيقات المسألة في العصر الحاضر :

غني عن القول أن أهمية موضوع المقال تنبع من أهمية فهم العقيدة الإسلامية
واستيعابها ، لكن من المفيد أيضاً أن ننظر كيف يمكن الاستفادة من منهج أهل السنة
والجماعة في هذا الباب في العصر الحاضر .. هناك مجالات متعددة ، لكني
سأقتصر على واحد من هذه المجالات ، وهو مجال الإعجاز العلمي في القرآن
والسنة .

إن الفكرة الأساسية في مشروع الإعجاز العلمي هي النظر في بعض
النصوص الشرعية التي تناولت المظاهر الكونية في ضوء الاكتشافات الحديثة ،
ولكي يسير المشروع في طريقه الصحيح ، دون الوقوع في خطأ تحميل النص ما لا
يحتمل ، فلا بد من فهم النص في ضوء قواعد التفسير وأصوله التي سلكها السلف
الصالح (رضي الله عنهم) ، والنصوص التي تناولت المظاهر الكونية قبل أن يعلم
الإنسان حقيقة هذه المظاهر وماهيتها تدخل في دائرة نصوص الغيب ، ومن هنا :

فإن الحاجة إلى اتباع منهج السلف في هذا الباب ملحة لكي يأمن الباحث في هذا
المجال من ليّ النصوص أو تأويلها لكي توافق الاكتشافات العلمية المعاصرة ، ومتى
أحسن تطبيق هذا المنهج ، ستكون النتيجة نصراً مضاعفاً ؛ فالاكتشاف العلمي
سيكون دليلاً جديداً على إعجاز القرآن ، وفي الوقت نفسه دليلاً على سداد منهج
أهل السنة والجماعة .

مثالٌ على ذلك أذكر قوله (تعالى) : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ ، فهذا البرزخ
كان غيباً لمن نزل عليهم القرآن ، ومقتضى منهج السلف أن يُثبت لهذا البرزخ
القدرُ المشترك للفظ (برزخ) المعلوم مما نشهده مما يطلق عليه اللفظ ، مع الامتناع
عن الجزم بمماثلته لشيء من ذلك ، ثم تبين لنا الآن طبيعة هذا البرزخ ، وشهد
الجميع فعلاً ثبوت القدر المشترك للفظ فيه ، مع مغايرته لكل ما عرفناه سابقاً .

إن هذه النتيجة لم يكن الوصول إليها ممكناً لو سلكنا سبل الفرق الإسلامية
التي اعتمدت التأويل منهجاً لها كلما وجدت ظاهر النص مخالفاً لما تقرر عندها من
مسلمات باطلة في كثير من الأحيان ، ومن جهة أخرى : فإن منهج السلف في هذا
الباب يضمن حماية النص من أي خطأ في تنزيله على الاكتشافات العلمية الحديثة ،
فغاية ما هنالك حينئذ أن الباحث أخطأ في تحديد (كيفية) النص ، أو (القدر المميز)
الذي تضمنه ، أما (المعنى) أو (القدر المشترك) فهو باق لم يطرأ عليه شيء . إن
مثل هذا المنهج هو الأسلوب الوحيد ، في نظري ، للجمع بين الحفاظ على تعظيم
القرآن (وما يتبع ذلك من احترام خير القرون وما أثر عنهم في تفسيره) واقتحام
ميادين جديدة للبحث عن إعجاز القرآن العظيم .

---

(1) الحس الظاهر كالجوع والعطش ، والباطن كالحب والبغض ، كما يذكر ذلك بعد أسطر .
(2) شرح حديث النزول ، الفتاوى : ج 5 ، ص 346 351 ، وانظر : درء التعارض ج 6 ، ص 123 125 .
(3) التوحيد : ج 1 ، ص 59 81 .
(4) الرد على المريسي : ص 400 401 .
(5) منهاج السنة : ج 2 ، ص 112 113 .

(6) الجواب الصحيح ، ج 3 ص 446 .
(7) درء التعارض ، ج 5 ص 227 .
(8) أي في الذهن وليس في الخارج (10) منهاج السنة .
(11) درء التعارض ، ج5 ص 183 .
(12) منهاج السنة ، ج2 ص 115116 .
(13) الفتاوى ، ج5 ص 357 359 .
(14) منهاج السنة ، ج2 ص 117 .
(*) المراد بالإلحاد هنا : الإلحاد في أسماء الله وصفاته بمعنى الميل بها والعدول عن الحق الثابت له - تعالى - .

خواطر في الدعوة

إحياء التراث .. كيف يكون ؟

محمد العبدة

ليس غريباً أن يهتم المسلمون اهـتماماً بالغاً بتراثهم العلمي ، فيحاولون إخراجه بحلة جديدة مع التحقيق والتدقيق ، بل هذا من الواجب المناط بهم ؛ فإنه لا نهضة ولا قوام لهم إلا بالاتصال بهذا التراث : فهماً ودراسة ، وتأملاً وعبرة ، وفي الوقت نفسه : نقداً وتصفية لما علق به مما يخالف أصول الإسلام وثوابته ومفاهيمه ، متأثراً بالظروف المكانية والزمانية .

إن الأمة المبتورة المنقطعة عن ماضيها لا خير فيها ؛ فالتراث هو القاعدة الأساسية للانطلاق ، ولكن هل نكتفي من الإحياء بتحقيق النص وذكر اختلافات النسخ ما بين (أ) و (ب) .. إلى غير ذلك من وسائل علم التحقيق وأدواته - الذي تقدم له في هذه الأيام من لا يحسنه - ؟ أم أن هناك إحياءً من نوع آخر ، يجب أن يترافق مع هذا التحقيق -إن لم يكن هو الأصل والأساس - ؟ ، ذلك هو إحياء أصحاب التراث في أخلاقهم وعملهم وعقلهم ، فإذا أحيينا تراث الإمام أحمد (رحمه الله) ، فلماذا لا نحيي صموده في وجه البدعة التي أرادت الدولة فرضها بالقوة ، ونحيي حرصه على جماهير الأمة ألا تقع ضحية هذه البدعة ، وليس أمامها عالم تقتدي به ، فصبر وصابر ، وكانت العاقبة للمتقين .

وعندما نحقق ما جمعه المحدثون ، كي نميز الصحيح من الضعيف ، فلماذا لا نحيي منهجهم في طلب العلم والرحلة إليه ، وتحملهم المشاق العظيمة في ذلك ، ولو أن يسمع حديثاً واحداً ، ومنهجهم في الضبط والتوثيق ، والبصر في الروايات

والرواة ؟ . ولماذا لا نحيي أدب الشافعي (رحمه الله) في الحوار واهتمامه بأمر
المسلمين عندما نجده يتأسف أن تكون مهنة شريفة كالطب بأيد ي اليهود والنصارى ، واهتمامه باللغة العربية لما رأى أن المسلمين أهلكتهم العُجمة فابتعدوا عن فهم
كتاب الله ؟ .

إن نقل علم ابن تيمية من المخطوطات إلى الورق الأبيض لهو شيء مهم
وضروري ، ولكن .. لماذا لا نحيي فيه تلك العقلية العلمية الواسعة وذاك الإنصاف
والاعتدال في تقويم الرجال ، وتلك الأخلاق العالية في الاعتذار لمن يغلب عليهم
اتباع الحق ، ولكن تبدر منهم هفوات وزلات ، ثم محاربته لأهل الإلحاد ودفاعه عن
حياض الإسلام ؟ ، وإن الذي يحيي فقه ابن المسيب لجدير به أن يحيي صلابته في
الحق ، والذي يكثر من ترديد (إحياء منهج السلف) لو أنه يتمثل بشجاعة ابن
المبارك ، وكرم الليث بن سعد ، ويحيي منهج السلف في العمل والبعد عن شهوات
الرئاسة العلمية والتصدر للناس ، وأن يتمثل صفاء قلوبهم وكثرة عبادتهم وخشيتهم ،
وبعدهم عن الخصومات الردّية والمردية .

هذا الإحياء للتراث هو الداء الشافي لموات هذه الأمة ، حتى لا تكون كما قال
الشاعر :

خلي الغمد ، ما في الكف مال وهذا الرف يهوي بالكتاب

دراسات تربوية

من ثمرات اليقين باليوم الآخر

بقلم : عبد العزيز بن ناصر الجليل

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبينا وقدوتنا محمد ، وعلى آله
وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين ، أما بعد ..

لما كان الإيمان باليوم الآخر أحد أصول الإيمان الستة التي لا يصح إيمان
مسلم بدونها .

ولما لذلك الإيمان من أثر في حياة المسلم وطاعته لأوامر الله (عزو جل)
واجتناب نواهيه ، ولما له من أثر في صلاح القلوب وصلاح الناس وسعادتهم في
الدنيا والآخرة ، ولما في نسيان ذلك اليوم العظيم والغفلة عنه من خطر على حياة
الناس ومصيرهم .. فلا غرابة إذن أن يرد ذكر هذا اليوم كثيراً في القرآن ، حتى لا
تكاد تخلو منه صفحة من صفحاته .

وإذا كان الكتاب والسنة قد اهتما غاية الاهتمام بتفاصيل ذلك اليوم المشهود
وبأحوال هذا النبأ العظيم ؛ فإنه من الحمق والجهل ألا نهتم بما اهتم به الوحيان .

إن أعظم قضية يجب أن ينشغل بها كل واحد منا هي : قضية وجوده وحياته
والغاية منها ، وقضية مستقبله ومصيره وشقائه وسعادته ، فلا يجوز أن يتقدم ذلك
شيء مهما كان ، فكل أمر دونه هين وكل خطب سواه حقير . وهل هناك أعظم
وأفدح من أن يخسر الإنسان حياته وأهله ، ويخسر مع ذلك سعادته وسعادتهم ، فماذا
يبقى بعد ذلك ؟ ﴿ قُلْ إنَّ الخَاسِرِينَ الَذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ
هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ ﴾ [الزمر : 15] .

وأهمية هذا الموضوع تتجلى فيما يلي :

1- انفتاح الدنيا الشديد على كثير من الناس في هذا الزمان وما صحب ذلك
من مكر الليل والنهار بأساليب جديدة ودعايات خبيثة تزين الدنيا في أعين الناس
وتصدهم عن الآخرة ، ومع ما كان عليه صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

من الإيمان والتقوى ، فقدكان يحذرهم من الاغترار بالدنيا وضرورة الاستعداد
للآخرة ، مع أن الدنيا لم تنفتح عليهم مثل اليوم ، فلا شك ولا ريب أننا أحوج منهم
بكثير إلى أن نتذكر الآخرة ويذكّر بعضنا بعضاً بعظمة شأنها وأهمية الاستعداد لها .
2- ركون كثير من الناس للدنيا ولقد ترتب على ذلك أن قست القلوب ،
وتحجرت الأعين ، وهُجِرَ كتاب الله (عز وجل) ، وإذا قرأ أحدنا القرآن قرأه بقلب
لاهٍ ، فأنّى لمثل ذلك القلب أن يخشع لذكر الله ؟ وأنّى لعينيه أن تدمع خوفاً من الله ،
وقد انعكس ذلك على الصلاة فقلّ الخاشعون والمطمئنون فيها .. والله المستعان .
3- لما في تذكر ذلك اليوم ومشاهده العظيمة من حث على العمل الصالح
والمبادرة لفعل الخيرات وترك المنكرات ، بل ما تكاسل المتكاسلون في عمل
الصالحات سواء الواجب منها والمسنون إلا بسبب الغفلة عن الآخرة والانشغال عنها
، يقول (تعالى) في وصف عباده الصالحين : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن
ذِكْرِ اللَّهِ وَإقَامِ الصَلاةِ وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ [النور : 37] . ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ
سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لايَعْلَمُونَ إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : 9] .
4- لما ظهر في عصرنا اليوم من المشكلات المعقدة والأمراض المزمنة ،
التي نشأت عنها الأمراض النفسية المتنوعة من القلق والاكتئاب اللذين يؤديان غالباً
إلى حياة يائسة ، ومن أسباب ذلك : البعد عن الله (تعالى) ، وعن تذكر اليوم الآخر .
5- لما تميز به زماننا اليوم من كثرة المظالم في بعض المجتمعات واعتداء
الناس بعضهم على بعض ، من أكلٍ لأموال غيرهم بدون وجه حق ، وكذلك النيل
من الأعراض ، والحسد والتباغض ، والفرقة والاختلاف ، وبخاصة بين بعض
الدعاة وطلبة العلم ، ولا شك أنه لا شيء مثل تذكر اليوم الآخر وتذكر الوقوف بين
يدي الله (عز وجل) علاجاً لتلك الأمراض .

6- ولما كان الركون إلى الدنيا والغفلة عن الآخرة من أعظم الأسباب في
وهن النفوس وضعفها كان لا بد من التذكير المستمر بذلك اليوم وما فيه من نعيم أو
جحيم ، لأن في هذا التذكير أكبر الأثر في نشاط الهمم وعدم الاستسلام للوهن
واليأس رجاء ثواب الله (عز وجل) وما أعده للمجاهدين في سبيله الداعين إليه .
7- ولما قلّ في برامج الدعوة والتربية الاعتناء بهذه الجانب العظيم من
التربية مما له الأثر الكبير في الاستقامة على الجادة والدعوة إلى الله على بصيرة ،
ولكن نرى من بعض المهتمين بالدعوة من يستهين بهذا الجانب العظيم حتى صار
بعضهم يقلل من أثر التذكرة بالآخرة بقوله : إن هذا الأمر يغلب عليه الوعظ أو هذا
مقال عاطفي وعظي... إلخ .. مع أن المتأمل لكتاب الله (سبحانه) وسنة رسوله -
صلى الله عليه وسلم- يرى بجلاء جانب الوعظ بارزاً بالربط بين الدنيا والآخرة
والثواب والعقاب .. نسأل الله أن يهدينا جميعاً وأن يوفقنا للاقتداء بالسنة والسير
على نهجها .

الآثار المرجوة لليقين باليوم الآخر :

إن في اليقين باليوم الآخر وأنبائه العظيمة لآثاراً واضحة وثماراً طيبة ، لابد
أن تظهر في قلب العبد وعلى لسانه وجوارحه ، وفي حياته كلها ، ولكن هذا اليقين
وحده لا يكفي حتى ينضم إليه الصبر ومجاهدة الشهوات والعوائق ، لأن الواحد منا
مع يقينه باليوم الآخر وأهواله يرى في حياته أن ثمرات هذا اليقين ضعيفة ، فلابد
إذن من سبب لهذا الأمر ، ويجلي هذه المسألة الإمام ابن القيم (رحمه الله تعالى)
فيقول : (فإن قلت كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة
والنار ويتخلف العمل ؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى
بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة ، أو يكرمه أتم كرامة ، ويبيت ساهياً
غافلاً ! ولا يتذكر موقفه بين يدي الملك ، ولا يستعد له ، ولا يأخذ له أهبته ؟ ! .

قيل : هذا (لعمر الله) سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق ؛ فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب :

أحدهما : ضعف العلم ونقصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت ، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ، ليزداد طمأنينة ، ويصير المعلوم غيباً شهادة .

وقد روى أحمد في مسنده عن النبي أنه قال : (ليس الخبر كالمعاينة) [1] .

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده ، وانضم إلى ذلك تغاضي الطبع ، وغلبات الهوى ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، وغرور الشيطان ، واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورخص التأويل ، وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال ، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب .

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر ، ولهذا مدح الله (سبحانه) أهل الصبر واليقين ، وجعلهم أئمة الدين ، فقال (تعالى) : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 24] [2] .

ذكر الثمرات المرجوة :

وبعد هذه المقدمة التي لا بد منها حول ثمرات اليقين بالنبأ العظيم نذكر ما تيسر من هذه الثمرات ، والله ولي التوفيق :

1- الإخلاص لله (عز وجل) والمتابعة للرسول :

إن الموقن بلقاء الله (عز وجل) يوم الفزع الأكبر ، لا تلقاه إلا حريصاً على أعماله ، خائفاً من كل ما يحبطها من أنواع الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر ، حيث إن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال ، فتصير هباءً منثوراً ، والشرك الأصغر

يحبط العمل الذي حصل فيه هذا النوع من الشرك كيسير الرياء ، والعجب ، والمن ، وطلب الجاه والشرف في الدنيا ، فكلما كان العبد موقناً بلقاء ربه كان منه الحرص
الشديد على ألا تضيع منه أعماله الصالحة في موقف القيامة ، يوم أن يكون في أشد
الأوقات حاجة إليها ؛ ولذلك فهو يجاهد نفسه بحماية أعماله في الدنيا بالإخلاص فيها
لله (تعالى) لعل الله (عز وجل) أن ينفعه بها ، كما أن اليقين بالرجوع إلى الله (عز
وجل) يجعل العبد في أعماله كلها متبعاً للرسول -صلى الله عليه وسلم- غير مبتدع
ولامبدل ؛ لأن الله (عز وجل) لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً ، قال
(تعالى) : - ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 110] .

2- الحذر من الدنيا والزهد فيها والصبر على شدائدها وطمأنينة القلب وسلامته :

إذا أكثر العبد ذكر الآخرة ، وكانت منه دائماً على بال ، فإن الزهد في الدنيا
والحذر منها ومن فتنتها سيحلان في القلب ، وحينئذ لا يكترث بزهرتها ، ولا يحزن
على فواتها ، ولا يمدن عينيه إلى ما متع الله به بعض عباده من نعم ليفتنهم فيها ،
وهذه الثمرة يتولد عنها بدورها ثمار أخرى مباركة طيبة منها : القناعة ، وسلامة
القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء ؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة
وأنبائها العظيمة لا تهمه الدنيا الضيقة المحدودة ، مع ملاحظة أن إيمان المسلم باليوم
الآخر وزهده في الدنيا لا يعني انقطاعه عنها وعدم ابتغاء الرزق في أكنافها ؛ يقول
(تعالى) : - ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ [القصص : 77] .

كما يتولد أيضا من هذا الشعور ، الراحة النفسية والسعادة القلبية وقوة
الاحتمال والصبر على الشدائد والابتلاءات ، ذلك للرجاء فيما عند الله (عز وجل)
من الأجر والثواب ، وأنه مهما جاء من شدائد الدنيا فهي منقطعة ولها أجل ، فهو

ينتظر الفرج ويرجو الثواب الذي لا ينقطع يوم الرجوع إلى الله (عز وجل) ، قال (تعالى) : ﴿ إن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : 104] وما إن يفقد القلب هذه المعاني حتى يخيم عليه الهم والتعاسة ، ومن هنا ينشأ القلق والانزعاج والضيق والحزن ، أما ذاك الذي عرف الدنيا على حقيقتها ، وامتلأ قلبه بهمّ الآخرة وأنبائها ، فإن نفسه لا تذهب على الدنيا حسرات ، ولا تنقطع نفسه لهثاً في طلبها ، ولا يأكل قلبه الغل والحسد والتنافس فيها ، ولا يقل صبره ولا يجزع قلبه عند المحن والشدائد ، ومهما حرم في هذه الدنيا الفانية فهو يعلم أن لله (عز وجل) في ذلك الحكمة البالغة ، وهو يرجو الأجر يوم القيامة ، قال (تعالى) : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : 33- 35] .

3- التزود بالأعمال الصالحة وأنواع القربات واجتناب المعاصي والمبادرة بالتوبة والاستغفار :

يقول الإمام ابن القيم (رحمه الله تعالى) : (ومما ينبغي أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور :

أحدهما : محبة ما يرجوه .

الثاني : خوفه من فواته .

الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان .

وأما رجاءٌ لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني ، والرجاء شيء والأماني شيء آخر ، فكل راجٍ خائف ، والسائرعلى الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات .

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله (من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة)[3]

وهو (سبحانه) كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل

الأعمال الصالحة ، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل ، قال (تعالى) : ﴿ إِنَّ الَذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ
(58) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ
إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾
[المؤمنون : 57- 61] .

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : سألت
رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر
ويزنون ويسرقون ؟ قال : (لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون
ويتصدقون ويخافون أن لايتقبل منهم ، أولئك يسارعون في الخيرات) [4] وقد روي
من حديث أبي هريرة أيضاً .

والله (سبحانه) وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ، ووصف الأشقياء
بالإساءة مع الأمن) [5] .

وقال (تعالى) : ﴿ إِنَّ الَذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ
يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : 218] .

يقول ابن القيم (رحمه الله تعالى) : (فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه
الطاعات ؟ وقال المغرورون : إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره
الباغين المتجرئين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله) [6] . للحديث صلة .

---

(1) أحمد ، ج1ص215 ، 271 وصحح إسناده أحمد شاكر (1842) .
(2) الجواب الكافي ، ص 54 .
(3) رواه الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب 18 الحديث رقم 2450 وانظر صحيح سنن الترمذي (1993) .
(4) رواه أحمد ، ج6ص159 ، والترمذي (كتاب التفسير) باب تفسير سورة المؤمنون ، ح 3175 .
(5) الجواب الكافي ، ص 57 ، 58 .
(6) الجواب الكافي ، ص 56 .

مقال

دور الملأ في الصد عن سبيل الله

بقلم : فهد بن ناصر الجديد

عندما أمر الله (تعالى) ملائكته بالسجود لآدم ، أبى إبليس واستكبر عن أمر ربه ، فقال (تعالى) مخاطباً إبليس بأمر قدري كوني : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف : 13] .

ولم يكتف إبليس بالطرد والإبعاد عن رحمة الله ، بل استدرك اللعين وسأل الله النّظِرَةَ إلى يوم القيامة ؛ إمعاناً في الكيد والحسد لآدم وذريته من بعده ، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر : 36] . وقد أجابه (تعالى) إلى ما سأل ، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ، ولا معقب لحكمه ، قال (تعالى) : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : 37- 40] .

من هنا يتضح أن السبب الرئيس في امتناع إبليس عن السجود لآدم هو الإباء والاستكبار على الله وليس التكذيب ، شأنه في ذلك شأن الملأ من الناس أعوان إبليس الذين تصدوا لدعوة الرسل .

والملأ هم : الرؤساء ، سُمّوا بذلك لأنهم مِلاءٌ بما يحتاج إليه ، وقيل : أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدّموهم الذين يرجع إلى قولهم [1] ، وقد استخدم أولئك الملأ كل ما يملكون من أساليب ووسائل لصرف الناس عن عبادة الله ، وصدهم عن سبيله ، من هذه الأساليب :

الأسلوب الاجتماعي :

عند دراستنا للقرآن الكريم يتضح أن الملأ من قومي نوح ولوط (عليهما الصلاة والسلام) قد استخدموا هذا الأسلوب لاستعباد الناس ، فبجانب عبادة الأصنام كان قوم نوح قد تفشى فيهم الصراع الطبقي ، فالملأ من السادات والأشراف قد

ورثوا هذه المكانة بسبب تعظيم أسلافهم الصالحين ، فزادهم ذلك مكانةً في مجتمعهم
عن أولئك الضعفاء من قومهم ، حتى أدى بهم الأمر إلى أن اتخذوا لهم صوراً
وأصناماً ، فلما اندرس العلم وعم الجهل وطال عليهم الأمد ، عبدوا تلك الأصنام .

فلما أرسل الله (تعالى) نوحاً (عليه الصلاة السلام) دعاهم إلى التوحيد الخالص
ونبذ الشرك ، قال (تعالى) : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25)
أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود : 25 ، 26] .

وقد كان السبب الرئيس المانع من استجابة أولئك الملأ هو أن التابعين له هم
الضعفاء والمساكين ، يقول (تعالى) : ﴿ فَقَالَ المَلأُ الَذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ
بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن
فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود : 27] .

وبعد أن أوضح نوح (عليه الصلاة والسلام) وبين حقيقة التوحيد وأبطل عبادة
الأصنام ، أخذ يصحح الوضع الاجتماعي المتردي في مجتمعه ، قال (تعالى) :
﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم
مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن
طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلا أَقُولُ
إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ
إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : 29- 31] .

أما لوط (عليه الصلاة والسلام) فقد استخدم الملأ من قومه أسلوباً بشعاً من
الأساليب الاجتماعية التي يستعبدون بها الناس ، هذا الإسلوب هو إتيان الذكران من
العالمين ، ولم تكن تلك الظاهرة الخبيثة مرضاً مقصوراً على فرد أو جماعة من
الناس ، وإنما كانت عامة في ذلك المجتمع ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنكَرَ ﴾
[العنكبوت : 29] .

فلما أرسل الله لهم لوطاً (عليه الصلاة والسلام) دعاهم إلى توحيد الله وترك
عبادة ما سواه ، ثم أنكر عليهم هذا الأسلوب البشع : وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنكَرَ [العنكبوت : 28 ، 29] .
أما قوم عاد وقوم ثمود فقد استخدموا أسلوب البناء العمراني بجانب عبادة
الأصنام ؛ ليصدوا الناس عن عبادة الله وحده ، فقد كانت قبيلة عاد تسكن ما بين
اليمن وعُمان ، وقد حباهم الله بنعم وفيرة وخيرات كثيرة حتى بلغوا قمة الإبداع
المادي والصناعي والرفاهة ، ولكنهم لم يعبدوا الله ولم يشكروا نعمه عليهم ، بل
استخدموا تلك النعم في استعباد الضعفاء ، فأرسل الله لهم هوداً (عليه الصلاة
والسلام) ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، قال (تعالى) : وَإِلَى
عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ
[هود : 50] .
وبعد أن دعاهم إلى التوحيد الخالص ، اتجه (عليه الصلاة والسلام) إلى
إصلاح ما كان عليه القوم من فساد ، فأنكر عليهم المبالغة في البنيان وشق السدود
واتخاذ المصانع حتى صرفهم ذلك عن عبادة الله ، قال (تعالى) : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [الشعراء : 128 ، 129] .
وقد تصدى الملأ من قومه لدعوته وحاربوه قَالَ المَلأُ الَذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا
لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ [الأعراف : 66] .
أما قبيلة ثمود فقد كانت تسكن الحِجْر (بين الحجاز والشام) وقد ساروا على
نهج سلفهم من قوم عاد في اتخاذ القصور والسهول حتى صرفهم ذلك عن
عبادة الله ، فأرسل الله لهم صالحاً فدعاهم إلى التوحيد الخالص ، قال (تعالى) : وَإِلَى ثَمُودَ
أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : 61] .

وبعد أن دعاهم إلى التوحيد ، انطلق صالحٌ (عليه الصلاة والسلام) فأنكر
عليهم أسلوبهم في استعباد الناس وصرفهم عن عبادة الله ، قال (تعالى) : ﴿ واذْكُرُوا
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ
الجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : 74] .

وقال (تعالى) : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147)
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (149)
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ المُسْرِفِينَ (151) الَذِينَ يُفْسِدُونَ فِي
الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : 146- 152] .

ولا شك أن الملأ قد تصدوا لدعوته وحاربوه ومن آمن معه ﴿ قَالَ المَلأُ الَذِينَ
اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن
رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ
كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف : 75 ، 76] .

الأسلوب الاقتصادي :

تقع مدين في بلاد الشام ، وقد حبى الله بلادهم مكانة مهمة ، إذ تقع في ممر
قوافل التجارة ، وقد استغل الملأ منهم هذه الأهمية ، فبجانب عبادتهم للأيكة (وهي
الشجرة الكبيرة) أصبحوا يطففون الكيل والميزان ، فبعث الله إليهم شعيباً (عليه
الصلاة والسلام) ودعاهم إلى التوحيد الخالص ، قال (تعالى) : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : 85] ثم أبطل ما
كانوا عليه من الظلم في تطفيف الكيل وبخس الناس والإفساد في الأرض ، قال
(تعالى) : - ﴿ فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي
الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 85] وليس

مستغرباً أن يتصدى الملأ إلى دعوة شعيب (عليه الصلاة والسلام) ويهددوه بالنفي :
 قَالَ المَلأُ الَذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن
قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ [الأعراف : 88] .

الأسلوب السياسي :

استخدم فرعون وملؤه هذا الأسلوب في استعباد الناس وصدهم عن دين الله ، ففرعون الذي قال : ... أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى [النازعات : 24] ، لا يدعي أنه الخالق المدبر ، وإنما يدعي أنه الحاكم المسيطر بإرادته وقانونه ، يفسر ذلك قوله (تعالى) : أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ [الزخرف : 51] ، بل كان فرعون يعبد آلهة قومه كما في قوله (تعالى) : وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [الأعراف : 127] لذا : استخدم فرعون وملؤه السحر ، وأجبروا مجموعة من الشبان على تعلمه ؛ ليفرضوا سيطرتهم على المجتمع ويصدوهم عن عبادة الله ، ويتبين ذلك من قول أولئك السحرة لما آمنوا بالله (تعالى) فلم يرهبهم التهديد والوعيد ، قال (تعالى) : إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [طه : 73] .

قال ابن عباس : (أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني اسرائيل ، فأمر أن يُعَلَّموا السحر ، وقال : علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض) [2]، فبعث الله (تعالى) موسى (عليه الصلاة والسلام) ، فدعاهم إلى وحدانية الله وأبطل ما كانوا عليه من السحر بالمناظرة التي انتهت بإيمان السحرة .

سبيل التصدي :

مما سبق يتضح أن معظم الكفر الحاصل في البشرية ليس بسبب تكذيب دعوة الرسل وإنما بالإباء والاستكبار على أمر الله ، يقول (تعالى) : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً [النمل : 14] يقول ابن القيم : (إن الله (تعالى) أيد

رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة ، وأزال به
المعذرة) [3] لذا : لابد لمن أراد دعوة الناس إلى الهدى أن يسلك سبيلاً واحداً سار
عليه الرسل جميعاً ، هذا السبيل هو البدء بالتوحيد الخالص ودعوة الناس إليه ،
وكشف ما يناقضه من الشرك بالله ، وسد الذرائع الموصلة إليه ، ثم الانتقال إلى
إصلاح ما تآلف الناس عليه من الفساد بمختلف أساليبه في المجالات الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن أي فساد في أي مجتمع هو من
صنع الملأ ، لذا : لابد من التحلي بالصبر على مشاق الدعوة تجاه ما يحدثه أولئك
الملأ ، يقول المودودي : (والظاهر أن أول ما يطالِب به دينُ الله عباده : أن يدخلوا
في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة
من قلائد العبودية لغير الله (تعالى) ، ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما
أنزله الله (تعالى) وجاء به الرسول الأمي الكريم -صلى الله عليه وسلم- ، ثم إن
الإسلام يطالبهم بأن ينعدم من الأرض الفساد ، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات ، الجالبة على العباد غضب الله (تعالى) وسخطه) [4] .

---

(1) ابن منظور ، لسان العرب .
(2) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج3 ص176 .
(3) مدراج السالكين ، ج1ص346 .
(4) مقدمة كتاب الأسس الأخلاقية ، للمودودي .

مقال

السلام .. كما جاء في القرآن الكريم

بقلم : د . محمد بن عبد الله الشباني

ورد لفظ (السلام) ومشتقاته في عدد كبير من آيات القرآن الكريم ، حيث عالج القرآن الكريم مفهوم السلام وفق معنى الإسلام الذي يقوم على ضرورة الخضوع التام والمطلق لخالق الإنسان ، من حيث القبول والتسليم بما يُوجبه الله ، وتكييف السلوك وفق مقتضيات ذلك .

إن أصل مادة (السلام) تأتي من الفعل الثلاثي (سَلَمَ) والمشتقات منه التي تأتي
لمعانٍ متعددة ، لكنها جميعاً تدور حول مفهوم : الاستسلام ، والطاعة ، والخضوع ،
والصلح ، وترك الحرب والمنازعة ، والسلم ، والأمان ، ولاستجلاء هذه المعاني
للفظة (السلام) كما جاء في القرآن الكريم فسوف أستعرض المعاني والدلالات التي
ورد فيها لفظ (السلام) على النحو التالي :

أولاً : في مجال الحياة الأسرية :

ورد أحد مشتقات كلمة (السلام) في سورة البقرة عند معالجة القرآن الكريم
لجانب من جوانب الحياة الأسرية ، الذي يتعلق بحماية الطفولة وتحقيق الأمان عند
انفصام الروابط التي تجمع بين عنصري الأسرة (الأب ، والأم) في قوله (تعالى) :
﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى
المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نُفْسٌ إلاَّ وسْعَهَا .... وَإنْ أَرَدْتُّمْ
أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُم إذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 233] في هذه الآية ورد لفظ
(سَلّمتم) ، وهو أحد مشتقات كلمة (السلام) ، وقد جاء اللفظ ضمن سياق آيات نظّمت
وعالجت أموراً تتعلق بالنتائج التي تترتب على الخلاف الذي يقع بين الزوجين ؛
مما قد يؤدي إلى الانفصال النهائي ، وبالتالي : فقد تم تنظيم علاقة الأطفال الذين
نتجوا عن تلك العلاقة ، ولقد استخدم القرآن الكريم لفظ (سَلّمْتُم) بدلاً من أي لفظ
آخر يفيد المنح والإعطاء ؛ لنكتة بلاغية وتربوية ، وهي : أن السلام في الحياة

الأسرية من أهم متطلبات الاستقرار النفسي لأفراد الأمة ، ومن هنا وردت كلمة (سَلّمتم) لتنظم العلاقة بين الزوجين المنفصلين ؛ بإضفاء مفهوم الأمان ، ويورد الزمخشري (رحمه الله) عند تفسيره لهذه الآية معنًى جليلاً لمفهوم (السلام) في الأسرة المسلمة ، فيقول : (إذا سلمتم إلى المراضع ما آتيتم : ما أردتم إيتاءه ، كقوله (تعالى) ﴿ .. إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ .. ﴾ [المائدة : 6] وقرئ ما أتيتم من أتي إليه إحساناً إذا فعله ، ومنه قوله (تعالى) ﴿ .. إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِياً ﴾ [مريم : 61] أي مفعولاً ، وروى شيبان عن عاصم : ما أوتيتم أي ما آتاكم الله ، وأجركم عليه من الأجرة ونحوه ، وليس التسليم بشرط للجواز والصحة ، وإنما هو نَدْب إلى الأولى ، ويجوز أن يكون نعتاً على أن يكون الشيء الذي تعطاه المرضع من أهنأ ما يكون لتكون طيبة النفس راضية ؛ فيعود ذلك إصلاحاً لشأن الصبي واحتياطاً في أمره ، فأمرنا بإتيانه ناجزاً يداً بيد ، كأنه قيل إذا أديتم إليهن يداً بيد ما أعطيتموهن بالمعروف ؛ مستبشري الوجوه ، ناطقين بالقول الجميل مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن ؛ حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن) [1] ! .

ثانيا : في مجال الحرب والسلم :

جاء لفظ (السلام) في القرآن الكريم في مواضع عديدة ، عندما تحدث القرآن عن علاقة المجتمع المسلم مع بقية الجماعات الأخرى التي تدين بغير دين الإسلام ، وأوضح الإطار الذي يحدد مظاهر ونوعية علاقات السلم ، والظروف التي يمكن فيها قبول المهادنة والصلح مع العدو ، ولهذا لابد من فهم هذه الآيات التي تحدثت عن الحرب والسلم وورود لفظ (السلام) فيها كوحدة واحدة ؛ لمعرفه كيفية بناء العلاقات السلمية مع الجماعات والمجتمعات الأخرى على النحو التالي :

1- المناوأة والمضادة للمجتمع المسلم :

من أبرز الآيات التي يُسْتَشْهَدُ بها لإجازة السلام مع أعداء الأمة قوله (تعالى) :

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا .. ﴾ [الأنفال : 61] وذلك بعد فصلها عن سياقها .
ولفهم هذه الآية لابدّ من فهم الآيات السابقة واللاحقة لها ، فهذه الآية جاءت تعقيباً
بعد قوله (تعالى) : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم .. ﴾ [الأنفال : 60] وجاء بعدها قوله
(تعالى) : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ .. ﴾ [الأنفال : 62] ، وإذا أردنا فهم هذه
الآيات أو ربطها ببعضها ، فلابد من الرجوع إلى ما قبلها من الآيات التي حددت
الظروف الحربية التي كانت سائدة في زمن الرسول ، فقد وصف القرآن الكريم هذه
الظروف بقوله (تعالى) : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ .. ﴾ [الأنفال : 55] ، فقد وصفت هذه
الآيات حقيقة الكفر والكافرين فيما يتعلق بمدى التزامهم بمواثيقهم ، ولقد أوضح ابن
كثير (رحمه الله) في تفسيره لهذه الآية : ماذا ينبغي أن تمارسه الأمة ، يقول (رحمه
الله) : (أخبر (تعالى) أن شر مادة على وجه الأرض هم الذين كفروا ، فهم لا
يؤمنون ، وكلما عاهدوا عهداً نقضوه ، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ، وهم لا يخافون
من الله في شيء ارتكبوه من الآثام ، فإن تَغْلِبْهُم وتَظْفَرْ بهم في حرب فنكلْ بهم :
قاله ابن عباس ، والحسن البصري ، والضحاك ، والسدي ، وعطاء الخرساني ،
وابن عيينة ، ومعناه : غلّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ؛ ليخاف مَن سواهم مِنْ الأعداء
من العرب وغيرهم ، ويعتبروا أو يصيروا لهم عبرة ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ ، وقال
السدي : يقول : لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيقع بهم مثل ذلك [2] .
إن السلام لا يقوم بدوره لصالح المسلمين إلا عندما يدرك العدو أن المسلمين
يمتلكون القدرة على تأديب الأعداء عند عدم احترامهم للمعاهدات ، لهذا لا يمكن
تحقيق السلام إلا إذا ذاق اليهود وأعوانهم الهزيمة المرة وأصبحوا تحت سيطرة
المسلمين ، وبالتالي : سيوفون بالعهد خوفاً من أن يُنكل بهم ، ولكنهم إذا عرفوا أنهم
إذ ينقضون المواثيق يحصلون على أوضاع أفضل مما حصلوا عليه ؛ فإنهم لا

يمتنعون عن نقض تلك المواثيق ، وما يحدث من نقض لمواثيق وعهود في البوسنة
والهرسك مثلاً لدليل معاصر يؤكد هذه الحقيقة .
إن قبول السلم والمهادنة مع الأعداء كما أوضحته الآية يرتبط بالالتزام من
قبل الأمة الإسلامية بما جاء في الآية التي سبقت آية ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ .. ﴾
[الأنفال : 61] وهي قوله (تعالى) : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم .. ﴾[الأنفال : 60] ، فقد أعقب هذه الآية قوله (تعالى) : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ .. ﴾ [الأنفال : 61]
فشرط قبول السلام أو المهادنة كما أوضحته الآية السابقة يتمثل في أمرين :
الأول : عدم جواز عقد الهدنة إلا إذا توفرت للأمة عناصر القوة ، المتاحة
وفق ما يتوفر في كل عصر من العصور من أسباب القوة ، وأن على الأمة العمل
على توفير هذه القوة بتنمية القدرات العسكرية بشكل مستمر ومتواصل حتى في
عهد السلم ، وبالتالي : - فأي مهادنة من قبل أي حاكم مسلم لا تكون سارية إذا أخل
بهذا الشرط ، وقد أشارت هذا الآية إلى حقيقة مهمة ، وهي : عملية تنمية القوة
العسكرية واعتبار أنها الوسيلة الفعالة لتحقيق السلام الحقيقي ، كما في
قوله (تعالى) : ﴿ .. تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. ﴾ [الأنفال : 60] ، فالاستعداد لا يُقصد
به القيام بالحرب ، وإنما هو التخويف به ، أي : تحقيق الردع ؛ ولهذا : وجّه الله
(تعالى) الأنظار إلى أن هذا الاستعداد يحتاج إلى الإنفاق ، وأن على أفراد الأمة بذل
المال في هذا السبيل ، وأن هذا الإنفاق لغرض تحقيق إرهاب العدو هو إنفاق في
سبيل الله ، يجزي الله المنفقين على بذله ، فلا يُبْخسون شيئاً مما أنفقوه في هذا
الوجه ، كما أن الاستعداد وتنمية القدرات العسكرية يجب أن يكون بتنمية القدرة
على تصنيع هذا السلاح ، والعمل على توفير المناخ الإداري والسياسي والمالي
لتوفير القدرة على ذلك ، فشراء السلاح من الأعداء بدون العمل على توفير
الإمكانات لصنعه يعتبر تضييعاً لحق الأمة ، وصرفاً لمفهوم قوله (تعالى) :
﴿ وأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم .. ﴾ [الأنفال : 60] .

الأمر الثاني : عدم قبول السلام أو المهادنة من موقف الضعف ؛
فيجب إلغاء
أي معاهدة أو هدنة إذا اتضح أن الالتزام بها سوف يؤثر على مصالح
الأمة ،
وعندئذٍ ، ووفق الأخلاق الإسلامية التي يأمر بها الله ، فإن من الواجب
إبلاغ
الطرف الذي تمت المعاهدة معه بإلغائها والاستمرار في مناصبة العدو
الحرب إلا إذا
قبل العدو تعديل المهادنة وفق مصلحة الأمة ، والامتناع عن طلب السلم
معهم إلا إذا
طلبوا المسالمة وخضعوا لشروط المسلمين ؛ أي إن السلام يكون مطلباً
للعدو بعد أن
يدرك أن القوة للمسلمين ، وليس أمامه إلا طلب السلام والقبول بما
يفرضه
المسلمون من شروط ، يقول ابن كثير (رحمه الله) في تفسير قوله (
تعالى) ﴿ وَإِن
جَنَحُوا لِلسَّلْمِ .. ﴾ الآية : (فإذا خفت من قوم خيانة فانبذ لهم عهدهم على
سواء ،
فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ، وإن جنحوا ، أي : مالوا ،
للسلم ، أي :
المسالمة والمصالحة والمهادنة ، فاجنح لها ، أي : فمل إليها واقبل منهم
ذلك ؛ ولهذا
لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين
رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك) [3] .
وبجانب ما أشارت إليه هذه الآيات من سورة الأنفال من شروط
لقبول السلام
والمهادنة مع الأعداء ، فقد أوضحت سورة النساء أوضاعاً أخرى لقبول
المهادنة
وتحقيق السلم مع الأعداء ، وذلك في حالة أن يكون هناك ضعف داخلي
في مجتمع
المسلمين ، وأعداء يتربصون بهم ، يتحينون الفرص للانقضاض على الأمة ،
يقول
(تعالى) : ﴿ فمَا لَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا
أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا
مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (88) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ
كَمَا كَفَرُوا
فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا
فَخُذُوهُمْ
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِياً وَلا نَصِيراً (89) إلاَّ الَذِينَ
يَصِلُونَ

إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا
قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ
السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (90) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ
وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ
وَيَكُفُّوا
أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ [النساء : 88- 91] .

السلام الذي تتحدث عنه هذه الآيات ، إنما هو سلم متعلق بوجود ظروف
توزع القوة بين معسكر الإسلام ومعسكر الكفر ؛ أي إن القوة متكافئة بين المسلمين
والكفار ، ولهذا تعمد فئة بالتظاهر بالإسلام أو بالوقوف على الحياد ، وقد أوضحت
هذه الآيات نوع المهادنة والسلم ، والأسلوب الذي يجب انتهاجه . وهذا التوجيه
الوارد في هذه الآيات يخص حالة قيام دولة مسلمة في مجتمعات إسلامية ، وفي
حالة وقوع معارضة لولي أمر المسلمين من فئات تنازعه الأمر بادعاء شرعي
فتطلب المصالحة أو المهادنة ، كما حدث من طلب معاوية (رضي الله عنه) الصلح
والتحكيم من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) الذي كان أميراً للمؤمنين ، ويؤكد
هذا المفهوم ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد بسنده إلى علي بن أبي طالب (رضي
الله عنه) أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال له : (إنه سيكون اختلاف أو
أمر ، فإن استطعت أن يكون السلم فافعل) [4] .

كما توضح الآيات طبيعة السلم والمهادنة في حالة التعامل مع المنافقين الذين
يدّعون الإسلام ، أو في ظل مفهوم السلام العالمي ، ويتمثل ذلك في الحقائق التالية :

1- إن طبيعة المنافقين هي خذلان الأمة في أشد المواقف خطورة حيث
يمارسون دور التثبيط وزعزعة ثقة الأمة بنفسها ، فهم يعمدون إلى تخويف الأمة
من أعدائها ؛ ليغرسوا فيها الوهن حتى لا تقاوم العدو فتستسلم له . وهذه الطبيعة

المتأصلة في نفوسهم إنما تعود إلى اتباعهم الباطل ، ولذا : لا نجد فترة من فترات
التاريخ الإسلامي كان المنافقون أصحاب القوة والنفوذ في الأمة إلا ونجد أن الأمة
وقعت في قبضة الأعداء ، وإن مجانبة هذا الأمر تكون بمنع المنافقين أن يُوَلّوْا قيادة
الأمة ، وعدم موالاتهم أو الاستعانة بهم وطلب النصرة منهم .

2- حددت الآيات نوعية نفاق الجماعات سواء داخل المجتمع المسلم أو
خارجه ، وتتمثل هذه الجماعات في دول كافرة ، سواء أكان كفرها متمثلاً في تبني
العلمانية منهاجاً يقوم عليه نظام الدولة ، أو دول أو مجموعات بشرية تتظاهر
بانتمائها للإسلام ولكن الكفر هو حقيقة هذه الجماعات أو الدول .

لقد أوضحت هذه الآيات كيفية التعامل مع هذه النوعية من الدول أو التجمعات
البشرية ؛ وذلك بتصنيف علاقة السلم والحرب إلى نوعين من التعامل : النوع
الأول : مسالمة هذه الجماعات أو الدول التي ترتبط مع دول أو مجموعات بينها
وبين الدولة الإسلامية مهادنة وترغب أن تقف على الحياد ، وهذا ما فعله رسول الله
-صلى الله عليه وسلم- مع بني مدلج ، فقد أورد ابن كثير في تفسيره لهذه الآية :
عن سراقة بن مالك المدلجي (رضي الله عنه) أنه حدثهم ، قال : (لما ظهر النبي -
صلى الله عليه وسلم- على أهل بدر وأحد ، وأسلم من حولهم ، قال سراقة : بلغني
أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج فأتيته ، فقلت :
أنشدك النعمة ، فقالوا : مه ، فقال النبي : دعوه ، ما تريد ؟ قال : بلغني أنك تريد أن تبعث إلى
قومي ، وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وإن لم
يسلموا لم تخشن لقلوب قومي عليهم ، فأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيد
خالد بن الوليد فقال : اذهب معه فافعل ما يريد ، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا
على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم) [5] .

الثاني : يشبهون النوع الأول في الصورة الظاهرة ، ولكن يختلفون في أن نية

هؤلاء غير نية النوع الأول ، فهم لا يظهرون المناجزة والمساندة في الظاهر حتى
ينالوا المنفعة من المجتمع المسلم ، ولكنهم في الحقيقة مع الأعداء ، يتآمرون ضد
مصلحة المسلمين ، بل إنهم يعمدون إلى المخادعة والتضليل ، وقد ذكر ابن كثير
عن ابن جرير عن مجاهد أن قوله (تعالى) : ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ
وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ
وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ .. ﴾ [النساء : 91] قد نزل في قوم
من أهل مكة ، كانوا يأتون النبي -صلى الله عليه وسلم- فيسلمون رياءً ، ثم
يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان ، ويبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا ،
فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا) [6] .

إن هذا النوع لا يقتصر على الأفراد المذبذبين ، بل يتعدى ذلك إلى الدول
والجماعات التي تمارس الخداع والتضليل ؛ إما من أجل تخدير المجتمع المسلم
ونزع روح المبادرة ، أو من أجل نهب خيراته من خلال إظهار مناصرة قضاياه
وحمايته من أعدائه بقصد ترويض المجتمع المسلم ، ولهذا : فإن على المجتمع
المسلم ألا يسمح لهذا النوع من النفاق الكافر بالوجود ، والعمل على قتالهم ، وإن
المهادنة معهم لا يجوز عقدها إلا إذا التزموا بكف الأذى وعدم التدخل في أمور
المجتمع المسلم .

لقد أوضح القرآن الكريم أن المهادنة وعقد السلام كما جاء في القرآن الكريم لا
يجوز إلا عندما يتم تحقيق ما جاء في آيات سورة محمد ، حيث قال (تعالى) : ﴿ إِنَّ
الَذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلا
تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾
[محمد : 34 ، 35] . فقد حددت هذه الآية عدم جواز بدء طلب السلم أو
المهادنة إلا إذا تحقق ما يريده الله : من أن المسلمين يكونون هم
الأعلون ، وبالتالي : فإنهم لا يطلبون السلام ، ولكن يمنحونه لغيرهم إذا
طلبه العدو ، لما فيه من مصلحة الناس ؛ من حيث تمكينهم من سماع

كلمة الله حتى تقوم الحجة على الناس ، فلا يكون للناس حجة بعد الرسل ؛ ولهذا : جاء الإسلام ووضع أحكاماً لأهل الذمة من أجل أن يتحقق
المبدأ الأساس في الإسلام ، الذي أشار إليه قوله (تعالى) : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ [البقرة : 256] .

ثالثاً : جاء لفظ (السلام) بمعنى الخضوع والاستسلام لله ، الذي هو المفهوم
الحقيقي لدين الإسلام ، فقد ورد لفظ (السلام) ومشتقاته للدلالة على الإسلام ، الذي
يعني كمال الخضوع والذلة والاستسلام لله بما شرعه وأمر به ، فقد ورد لفظ (السّلم)
بهذا المعنى في قوله (تعالى) : ﴿ يا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. ﴾ [البقرة : 208] ، فإذا جاء من يعرف معنى هذه الآية ،
ويستشهد بأنها دليل على أن الإسلام يأمر بعقد السلام مع أعداء الله الذين نهبوا
الأرض وأخرجوا المسلمين من بلادهم ، وشردوهم في الأرض ، فقد صرف معنى
الآية عن مفهومها الذي نزلت به إلى معنى آخر مغاير لما نزلت من أجله .

إن المعنى الحقيقي لهذه الآية كما فسرها علماء المسلمين من المفسرين : هو
الأمر بالدخول في الإسلام ، وقبول شريعة الإسلام ، يقول الزمخشري : (السّلم
بكسر السين وفتحها وقرأ الأعمش بفتح السين واللام هو الاستسلام والطاعة ، أي :
استسلموا لله وأطيعوه (كافة) لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته ، وقيل هو الإسلام ،
والخطاب لأهل الكتاب ، لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم ، وللمنافقين لأنهم آمنوا
بألسنتهم ، ويجوز أن يكون (كافة) حالاً من السلم ، لأنها تؤنث كما تؤنث الحرب ... على
أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها ، وأن لا يدخلوا في طاعة دون
طاعة ، بل شُعَب الإسلام وشرائعه كلها ، وأن لا يتركوا شيئاً منها ، وعن عبد الله
بن سلام أنه استأذن من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقيم على السبت وأن
يقرأ من التوراة في صلاته من الليل . ﴿ فإن زللتم ﴾ عن الدخول في السلم من بعد
ما جاءتكم البينات ، أي : الحجج والشواهد على أن ما دعيتم إلى الدخول فيه هو
الحق ، فاعلموا أن الله عزيز غالب لا يعجزه الانتقام منكم) [7] .

ويقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : (يقول الله (تعالى) آمراً عباده
المؤمنين به المصدقين برسوله : أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل
بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك ، فقال العوفي عن ابن
عباس ومجاهد وطاووس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله
 ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ .. يعني
: الإسلام، وقال الضحاك عن ابن عباس، وأبو العالية
، والربيع ، عن أنس ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ .. يعني : الطاعة ، ومن المفسرين من
يجعل قوله كَافَّةً حالاً من الداخلين في الإسلام : كلكم ، والصحيح الأول
، وهو : أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام وهي كثيرة جدّاً ما
استطاعوا منها ، كما روى ابن أبي حاتم ... عن ابن عباس ادْخُلُوا فِي
السِّلْمِ كَافَّةً كذا قرأه بالنصب ، يعني : مؤمني أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله
مستمسكين ببعض أمور التوارة والشرائع التي أنزلت فيهم ، فقال الله : ادْخُلُوا فِي
السِّلْمِ كَافَّةً يقول : ادخلوا في شرائع دين محمد -صلى الله عليه وسلم- ولا تَدَعُوا
منها شيئاً ، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها ، وقوله : فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا
جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ أي : عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج ، فاعلموا أن الله
عزيز ، أي : في انتقامه ، ولا يفوته هارب) [8] .

والآيات التي ورد فيها لفظ (السلم) ضمن مفهوم الإسلام المتضمن لمعاني
الخضوع والاستسلام مثل قوله (تعالى) : بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ
أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ .. [البقرة : 112] ، وقوله (تعالى) : أفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ
أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً .. [آل عمران : 83] .

رابعاً : لقد ورد لفظ (السلام) في القرآن بما يفيد ضرورة استخدامه كتحية
يتخذها الأفراد ، بقصد بث الأمان النفسي والمادي في المجتمع المسلم ، وقد ورد
هذا المعنى في صور ومواقف متعددة ، كحكاية عن واقع لما سيحدث في الدار

الأخرى ، ولطمأنة أفراد المجتمع بعضهم لبعض في تعاملهم ، ومن ذلك : ما ورد
في سورة هود ، في قوله (تعالى) : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا
سَلاماً قَالَ سَلامٌ .. ﴾ [هود : 69] ، وقوله (تعالى) : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً
قَالَ سَلامٌ .. ﴾ [الذاريات : 25] ، وقوله (تعالى) : ﴿ .. قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ
وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾ [طه : 47] ، وقوله (تعالى) : ﴿ .. لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً
غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا .. ﴾ [النور : 27] ، وقوله
(تعالى) : ﴿ .. وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً .. ﴾
[النساء : 94] ، وغير
ذلك من الآيات التي تدور حول مفهوم السلام الذي يعطي الأمان ويبث الاطمئنان في
النفوس ويزيل عنها الخوف والوجل .

فهذه الآيات جميعها تشير إلى أن السلام هو الأمان النفسي والمادي ؛ ولهذا
يأمر الله عباده المؤمنين أن يمارسوا قول السلام وفعله في الدنيا لتحقيق السلام
الاجتماعي ، الذي يمثل الغاية التي يسعى إليها الإسلام ، فالسلام بمختلف معانيه
يقود إلى الأمان الذي هو غاية كل إنسان .

خامساً : ومن المعاني التي ورد فيها لفظ (السلام) أنها اسم من أسماء الجنة ،
باعتبار أن السلام الحقيقي الدائم والمستمر هو ما يتحقق في الجنة ، حيث يتحقق
للإنسان الأمان النفسي والمادي والخلود الأبدي ، فهو السلام الذي يطمح
إليه الإنسان ، يقول الله (تعالى) مخبراً عن ذلك : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 127] ، ولأن مانح السلام الحقيقي في الدنيا والآخرة هو
الله (سبحانه) ، ولأهمية السلام وعظيم شأنه فقد سمى نفسه بذلك ، فمن أسمائه
الحسنى : (السلام) كما جاء في قوله (تعالى) : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ
القُدُّوسُ السَّلامُ .. ﴾ [الحشر : 23] .

---

(1) الكشاف ، للزمخشري ، ج1 ص 371 372 .
(2) تفسير ابن كثير ، ج2 ص 320 .
(3) السابق ، ج2 ص 322 .
(4) السابق .
(5) المصدر نفسه ، ج1 ص 533 .
(6) السابق .

(7) الكشاف ، ج1 ص 353 .
(8) تفسير ابن كثير ، ج1 ص 347 .

هموم ثقافية

إشكالية زاوية النظر للديمقراطية (2)

بقلم : سامي محمد صالح الدلال

تحدث الكاتب في الحلقة الماضية عن التباين الذي يحدث في تفسيرالديمقراطية وتبني موقف منها بناءً على اختلاف زوايا النظر إليها من خلال منظور كل من : الحكام ، والأحزاب ، والمنظور القبلي ، ومن خلال منظور العامة من الناس ، ويواصل الكاتب في هذه الحلقة معالجة بقية الموضوع .

- البيان -

منظور الأبعاد :

هما بعدان : المكان والزمان .

إن مفهموم الديمقراطية في الاستغراق الزمني المحدد يتحول إلى مفاهيم متعددة بحسب المكان ، أي : بحسب البلدان والأقاليم والقارات ، ففي جيلنا المعاصر باعتباره بعداً زمنيّاً ، فإن مفهوم الديمقراطية لدى الدول الغربية هو غير مفهومه لدى دول العالم الثالث ، كما أنه غير مفهومه لدى الدول التي تولدت من تفكك الاتحاد السوفييتي السابق ، وهناك أسباب عدة وراء اختلاف تلك المفاهيم ، منها :

1- طبيعة التركيبة السكانية .
2- تنوع واختلاف المراجع العقدية .
3- تمايز الألوان الثقافية والتعبيرات الحضارية .
4- تباين الأنظمة السياسية .
5- اختلاف الطبيعة الجغرافية .
6- مقدار استحضار المختزن التاريخي .
7- بروز أو ضمور التفاوت الطبقي .
8- مضمون المنحى الاقتصادي وهياكله .
9- كيفية ممارسة وتطور العلاقات الاجتماعية .
10- حجم المشاركة الأممية ، مع ملاحظة التنافس على الأدوار القيادية والسيادة العالمية .
11- تعدد الاجتهادات المجتمعية للتعبير عن الذات وممارسة النفوذ .

12- تنوع المشاعر النفسية والانفعالات العاطفية بحسب الريادة أو التبعية .

فلو نظرنا من خلال بعد زمني محدد وليكن جيلاً أو جيلين إلى خارطة بلدان الكرة الأرضية الآخذة بالديمقراطية ، لوجدنا أن ديمقراطية كل بلد منها تختلف عن الأخرى ، إما لتحقق جميع الأسباب السابقة فيها ، أو لتحقق بعضها ، مع ملاحظة ما يمكن أن يتولد من أسباب أخرى ناشئة عن التداخل والتفاعل بين الأسباب السابقة .

ذلك من حيث منظور بعدي الزمان المحدد والمكان غير المحدد .

وأما في إطار بعدي المكان المحدد والزمان غير المحدد ، فإننا لو أخذنا بقعة مكانية واحدة مثلاً ، بلداً من البلدان ، فإننا عند التدقيق في استغراقه الزمني سنلاحظ للديمقراطية فيه تطوراً تاريخيّاً مستمراً ، وهو يصعد درجات سلم السنين ثم القرون ، فمفهوم الديمقراطية الآن في بلد ما ليس هو مفهوم الديمقراطية نفسه في ذلك البلد قبل قرن أو قرنين ، وإن الانتقال من مفهوم الديمقراطية السابق إلى مفهوم الديمقراطية اللاحق لم يتم دفعة واحدة ، فهو خارج إطار تطور الطفرة ، بل تم هذا التطور تدريجيّاً ، وهذا يعني أن مفاهيم ديمقراطية متتابعة قد مرت على ذاك البلد .. وما ينطبق على بلد واحد ينطبق على باقي البلدان ، كل بحسب ظروفه وأحواله ، وهناك عدة أسباب تؤدي إلى تغير أو تطور المفهوم الديمقراطي في البلد الواحد عبر الزمن ، منها :

1-التطورات الثقافية .

2- التحولات الاجتماعية .

3- التغيرات السياسية .

4- المقدرات الاقتصادية .

5- التأثرات بالوافدات الخارجية .

6- الاستعدادات التعبوية ، سواء أكانت نفسية أو مادية ، انتشارية أو انكفائية .

7- الممارسات الاحتكاكية ، كالحروب مثلاً .

8- طغيان الشعور بالتحدي الأممي .

9- الاندفاع أو الانخذالات الحضارية .

10- التعرض للظروف الحادة كالأمراض الوبائية أو الكوارث الجيولوجية .

ومن خلال تلك المؤثرات يمكننا أن نتخيل طبيعة تطور مفهوم الديمقراطية من

منظور البعد الزمني غير المحدد .
فإذا نظرنا للمفهوم الديمقراطي من خلال البعدين المكاني غير المحدد والزماني غير المحدد وفق العناصر التي ذكرتها وطبيعة التداخل الذي بينها ، لاتضح أمامنا حجم الفوضى الحياتية التي سيحياها البشر من خلال اندراج ترتيب شؤون حياتهم على ذلك المفهوم المتغير والمتطور باستمرار .
ويمكننا أن نرصد عناصر رئيسة في تلك الزوبعة الفوضوية الناشئة من الاحتكام للمفاهيم الديمقراطية ، ومن أهمها :
1- انبتات المسيرة البشرية عن التوجيه الرباني .
2- الاحتكام إلى منطلقات ذات طابع مصلحي لا يمكن الاتفاق عليها ، وبالتالي : الفشل في بلورة مرتكزات قيمية تستظل في فيئها معالم الاستقرار البشري .
3- شيوع الفوضى الفكرية وذيوغ النظريات الكلامية وامتداد التحليلات الفلسفية .
4- (الغاية تبرر الوسيلة) سيكون الشعار الذي تحت ظله ترسم الخطط وتنفذ البرامج .
5- التناحر والتقاتل لفرض الهيمنة وإحكام السيطرة وإخضاع الخصوم : نفوساً وممتلكات .
6- تفاقم التفاوت الطبقي برعاية دستورية .
7- بروز الثقافات الإلحادية المكتظة بالإسفافات العقدية والجنسية .
8- استشراء التمزقات الاجتماعية ، ومن أبرزها التفككات الأسرية .
9- ظهور الجنوحات نحو إبراز الذات وممارسة الهيمنة .
10- انعدام ضوابط ممارسة الحرية بمفهومها السوي .
11- التخلخل الاقتصادي الناجم عن التبدل المستمر بالنظريات والتطبيق .
12- استشراء الرذائل بسبب اختلاف النظرة لمفهوم الأخلاق ، وبواعث القيم ، ومدلولات الممارسات والتصرفات .
فإذا وضح لنا ذلك ، علمنا مقدار الانحراف والخطر الذي وقع في مهاويه بعض الإسلاميين ، وهم يغذون السير في الطرق الديمقراطية .

ولعلنا من خلال منظور الأبعاد المذكورة نستطيع أن نمس الخسائر الفادحة
التالية المترتبة على انسياق بل انجراف الإسلاميين نحو المستنقع الديمقراطي :
1- التعبير العملي عن عدم إحاطتهم بكيفية استيعاب المنهاج الرباني
لمتطلبات البشرية عبر اختلاف المكان وتتابع الزمان .
2- محاولة تبرير ذلك التعبير بأطروحات عقلية محضة تتلمس لتمريرها
مصطلحات أصولية تتعلق بالمفاسد والمصالح .
إن هناك خطورة إضافية تتعلق باستخدامهذا المنهج للوصول إلى ذلك التبرير
، تلك الخطورة تكمن في توسيع (ترجيح) قد حصل لحالة معينة في مكان محدد
وزمان معين ليشمل مسيرة منهج كامل ، فلو حصل في بلد ما ، وبظروف معينة أن
رجح الإسلاميون خوض الانتخابات النيابية ، (وهم مخطئون في ذلك من وجهة
نظري) ، فإن هذا الترجيح لايجوز توسيعه لتمرير الفكرة الديمقراطية وممارساتها
في العالم الإسلامي أجمع .
3- إحلال المفاهيم الديمقراطية ، بكافة ما تحتويه من سلبيات (ذكرت بعضها)
محل المفاهيم الإسلامية ، أي : استبعاد الكتاب والسنة .
4- وقوع الاختلاف والشقاق بين الإسلاميين الديمقراطيين أنفسهم ، بسبب
طبيعة ما تحمله المفاهيم الديمقراطية من اختلافات إزاء النظر لكل حالة قائمة أو
طارئة .
5- اندثار الثقافة الإسلامية وبروز الثقافة العلمانية باسم الديمقراطية .
6- الولوج في الامتزاج الحضاري ، فكراً وممارسة ، مع مجتمعات الكفر
والإلحاد ، وذلك من خلال القفز على الفواصل العقدية المؤصلة في الكتاب والسنة .
7- الاحتكام إلى القوانين الوضعية البشرية ، مما يترتب عليه أمران :
أولهما : إلحاق الوصف الشرعي بفاعلي ذلك ، وهو الكفر والظلم والفسق (كل بحسبه) .
وثانيهما : بلورة جميع مناحي الحياة في إطار صبغة تلك القوانين الوضعية ، مما
يترتب عليه فوضى عقدية وأخلاقية وثقافية واقتصادية وأمنية تفوت جميع

الضرورات الخمس التي راعتها الشريعة من حفظ للدين والنفس والمال والنسل
والعقل .
8- استحقاق هذه الأمة المحتكمة في شؤونها للمفاهيم الديمقراطية لغضب الله
(تعالى) ، مما يترتب عليه تسليط الأعداء عليها ، وإلحاق الهزائم المنكرة بجيوشها
وعساكرها ، ورفع البركة من أقواتها ونزع الأمن من قلوبها ، قال (تعالى) :
﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .
وإن من أعظم النعم على هذه الأمة : كتاب ربها وسنة نبيها -صلى الله عليه
وسلم- ، وإن من الكفر بهما عدم الاحتكام إليهما ، بل الاحتكام إلى غيرهما بدلاً عنهما ،
وإننا لنرى بأم أعيننا كيف أن لباس الجوع والخوف لاحق بالمتحاكمين إلى
الديمقراطية .
9- إن الإسلاميين (الديمقراطيين) يتحملون المسؤولية الشرعية أمام الله
(تعالى) ، ثم أمام الناس من الأجيال القادمة فيما جنته أيديهم من آثار ردم المفاهيم
الإسلامية بالتراب الديمقراطي ، كم من الجهد وبذل الطاقة واستغراق الأوقات
ستحتاجه الأجيال الإسلامية القادمة حتى تتمكن من إزالة ذاك التراب الديمقراطي
عن المفاهيم الإسلامية الحقة لتظهر كما هي .. حقيقة زاهية بهية .
10- أن الإسلاميين (الديمقراطيين) ، بسلوكهم الديمقراطي يعبرون عن قدوة
غير مُرضية ، سواء على مستوى جيلهم أو على مستوى الأجيال القادمة ، إن الناس
يذكرون أعلام الهدى من أهل السنة والجماعة الذين لم يتنازلوا قيد أنملة عن الحق
المكلل بالدليل الشرعي من أمثال : أحمد بن حنبل ، والعز بن عبد السلام ، وابن
تيمية (تغمدهم الله برحمته) .. وغيرهم كثير من علماء الإسلام ، يذكرونهم بالخير
والتزكية ، ولايزكون على الله أحداً ، ويدعون لهم برفع الدرجات ونيل المكرمات

في أعلى الجنات ، لكن بماذا سيذكر مسلمو الأجيال القادمة أولئك الديمقراطيين
الإسلاميين الذين انساقوا في خضم تلك المجالس التي تخضع كتاب الله وسنة رسوله
للتصويت البشري ليُرى هل يأخذ بهما أو لا يأخذ .. نعم ، لن تذكر الأجيال
الإسلامية القادمة الإسلاميين أصحاب المفاهيم الديمقراطية بالخير والدعاء لهم بما
تدعو به لعلماء الإسلام الذين صان الله بهم دينه وأعلى بالتزامهم كتابه وسنة نبيه
كلمة الإسلام خفاقة عالية .

12- إن الإسلاميين الديمقراطيين ، بمؤلفاتهم ودراساتهم وكتبهم حول الأخذ
بالديمقراطية سيُدخلون شوائب عظيمة في المفاهيم الإسلامية لا تقِل خطورة عن تلك
الشوائب التي أحدثها إدخال علم الكلام وفلسفة اليونان في مناهج النظر وإعمال
الفكر في المفاهيم العقدية الإسلامية ، تلك العلوم التي حرفت الفهم الصحيح للعقيدة
السلفية ، عقيدة أهل السنة والجماعة .

13- إن استغراق الإسلاميين (الديمقراطيين) في حمأة المناهج الفكرية
والممارسات العملية للديمقراطية قد صرف أذهانهم ولفت قلوبهم عن الجهاد في
سبيل الله (تعالى) ، ذلك أن الحكم الديمقراطي وهو حكم بشري بحت قد خلع الالتزام
بشرع الله (تعالى) من رقبته ، ومن جملة ذلك : الجهاد في سبيل الله ، إن الجهاد في
سبيل الله (تعالى) حكم معطل تماماً في ظل المجالس النيابية وأحكام الديمقراطية .

14- إن احتكام الإسلاميين للديمقراطية وأخذهم بها يفرض عليهم لزوماً عدم
الاعتراض على كل ما يعرضه الملحدون والمرجفون والمنافقون من أفكار علمانية
وطروحات حداثية . إن أقصى ما يمكن أن يعترض به الإسلاميون في هذا المجال
هو قولهم : لا يجوز أن يقال كذا أو يقال كذا . فيرد عليهم الآخرون بقولهم : إننا في
دولة ديمقراطية تكفل الحريات والإدلاء بالآراء ، فليقل كل منا ما يشاء ، ولم لا ؟ !
فالدستور يحمي الجميع .

وبعد .. فتلك بعض آثار انعكاس المفاهيم الديمقراطية وأبعادها المختلفة على
أفكار وتوجهات الإسلاميين وممارساتهم تلك الأفكار التي تتبدى خللاً في الفهم
العقدي وانحرافا في الممارسة والتوجه الدعوي .
فهلاّ انتبهنا إلى آفاق تعدد زوايا النظر إلى الديمقراطية وما ينتجه من
إشكاليات ؟ ! ! .

نص شعري

العيد

شعر : حسين علي محمد

(1)

لا تطلب مني أن أطرب وأغنّي بجميلِ الشِّعرْ
في هذا العيدْ
فالحزنُ شديدْ
آلامي تقهَرُ جبلَ الصَّبْرْ
هل قُضي الأمرْ ؟

(2)

يا كم خَدَعونا بالقول البرّاقِ .. بكلِّ غثاءْ
حتى صِرْنَا هَدَفاً لسهام الأعداءْ
خَدَعونا بالصِّورِ الشوهاءْ
فجرينا خلْف الأوهامِ الخَادِعِة السَّوْدَاءْ
حتى ضجَّتْ منا الأهْوَاءْ

(3)

آهِ من فتَنٍ ينسجُها الغشَّاشُون الكذَّابُون بلا رحْمَه
هل نحنُ الأبناءُ البررةُ في هذي (العتْمَه) ؟
هل نحنُ (الأمَّهْ) ؟
من يكشف عنَّا هذي الغُمَّهْ ؟
من يمتلكُ العزْمةَ ، والوثبةَ ، والهمَّهْ ؟

(4)

لا تطْلُبْ مني شرحاً ، فالليلُ قصيرْ
والحزنُ وفيرْ
وأنا .. مكلومُ القلبِ ، حسيرْ
لا تطلبْ مني أن أشدوَ في هذا العيدِ
بدرِّ القوْلِ
فقلبي .. مفطورٌ وكسيرٌ

الأمم المتحدة

الموقف العجيب حيال قضيتي فلسطين والبوسنة ! !
(3)

بقلم : عبد العزيز كامل

كان الحديث في حلقات سابقة ، عن الواقع الذي أفرزته الحرب العالمية الثانية ، الذي تمخض عن نشوء علاقات ليست عادلة بين أمم الأرض ، تمثلت في وجود عالم حرّ قوي ومستكبر ، يتحكم في عالم آخر يرسف في قيود العبودية والتأخر والضعف ، على الرغم من أنه يمتلك كل إمكانات القوة والغنى والتقدم ، وهذا العالم المستضعف والمستهدف كان وللأسف يتمثل في غالبيته من شعوب الأمة الإسلامية عرباً وعجماً ، حيث فرضت الدول الكبرى أو المتكبرة من خلال هيئاتها العالمية معادلات دولية صارمة وظالمة ، لا تسمح تحت أي ظرف من الظروف لأي من دول العالم الإسلامي منفردة أو مجتمعة أن تخرج عن إطار التبعية لهيمنة الكبار وتسلطهم .

وإذا كانت السياسات العامة الدولية ، تشير في مجموعها إلى الملامح الواضحة لهذا المسلك الجائر من تلك الأمم ضدنا ، فإن هناك محطات بارزة في تلك السياسات ، تنطق وقائعها بأن ما أريد له أن يكون (شرعة دولية) أو (شرعية دولية) ! ليس أكثر من بنود في برنامج تسلطي دولي يحفظ لتلك الأمم (المتحدة) سيادتها على الأمم (غير المتحدة) ، وسأضرب مثالين فقط لقضيتين إسلاميتين ، إحداهما وهي قضية فلسطين تدور أحداثها منذ عقود ، والثانية نشأت أحداثها من وقت قريب وهي قضية البوسنة ، ومع هذا : فإن طريقة الأمم المتحدة في معالجتهما ، تثبت أن المنهاج في التعامل واحد ؛ لأنه يعكس إرادة واحدة هي إرادة الأعداء الكبار .

أولاً قضية فلسطين :

كانت(عصبة الأمم) هي المنشئة عمليّاً لـ (الوطن) القومي لليهود في فلسطين ، وذلك بإخضاعها للانتداب البريطاني ، لكي يُجهّزها موطناً دائماً لعصابات

الصهاينة ، وكذلك تبنت عصبة الأمم وعد (بلفور) ، وحولته من وعد نظري فردي
إلى سياسة عملية جماعية ، أسبغت عليها مقررات العصبة (شرعية دولية) .
ولما جاءت (هيئة الأمم المتحدة) وحلت محل عصبة الأمم ، انتقلت بالأرض
الفلسطينية من حالة (الوطن) إلى حالة (الدولة) لليهود ، فكانت هي المنشئة من
الناحية العملية للدولة السفاح التي سميت بعد ذلك (إسرائيل) ، وتحقق ذلك عندما
اقترحت لجنة تابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة في إبريل سنة 1947م تقسيم
فلسطين إلى دولتين مستقلتين ، إحداهما يهودية والأخرى فلسطينية ، مع إبقاء
القدس تحت نظام دولي خاص ، وهو ما وافقت عليه على الفور الوكالة اليهودية ،
التي كانت بمثابة دولة لليهود قبل مرحلة الدولة ، أما عرب فلسطين وباقي الدول
العربية فقد رفضوا الاقتراح ، ولكن الجمعية العامة للأمم المتحدة أقرته مع ذلك في
29 نوفمبر عام 1947م ، وبهذا أعطت تلك الجمعية لنفسها لأول مرة حق تقرير
مستقبل شعب ومصير إقليم دون استفتاء ذلك الشعب أو الرجوع إليه .
ومن العجيب أن الجمعية العامة التي أقرت هذا القرار الجائر رغم أنف
أصحاب الشأن هي نفسها التي رفضت اقتراحاً عربيّاً بطلب رأي استشاري من
محكمة (العدل) الدولية ، يبدي الرأي في أهلية تلك الجمعية لاتخاذ مثل هذا القرار
بذلك الشكل ! .
لقد مضت الجمعية العامة للأمم المتحدة في وضع هذا القرار موضع التنفيذ ،
وقررت تشكيل لجنة خاصة مهمتها إدارة المناطق التي ترحل عنها قوات الدولة
المنتدبة (بريطانيا) ريثما يتمكن اليهود من التحضير لإنشاء حكومتهم على الأرض
المقررة لهم ، وطلبت من مجلس الأمن أن يراقب الوضع ، ويتخذ الإجراءات
الضرورية لتمكين اللجنة من أداء مهمتها .
ولكن بريطانيا سارعت في 14 مايو 1948م إلى إنهاء انتدابها من جانب

واحد ؛ لتمكين اليهود من التعجيل بإعلان دولتهم المستقلة قبل أن يتمكن العرب
والمسلمون من إجهاض المشروع ، وحتى تتم لليهود الحماية من (المجتمع الدولي)
باعتبارهم (أصحاب دولة مستقلة عضو في الأمم المتحدة (، وكان لهذا القرار
البريطاني المفاجئ أثره ؛ إذ سارع اليهود إلى إعلان الدولة بالفعل في اليوم التالي ،
مما أدى إلى اندلاع القتال بين العرب و (دولة (اليهود ، بدلاً من (عصابات) يهود ،
وحسب ما هو متوقع ، فقد تدخل مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، وأمر بوقف
العمليات العسكرية ، ودعا إلى هدنة ، وكلفت الأمم المتحدة وسيطاً لها هو (الكونت
برنادوت (للمساعدة في إيجاد تسوية سلمية بين العرب و (دولة) إسرائيل ، تضمن
التعايش بين الطرفين ، ولكن اليهود لم يكونوا بعد على استعداد لحلول سلمية ، فلا
يزال في برامجهم الكثير ؛ فلهذا أقدم عملاؤهم على اغتيال الوسيط الدولي ، ومع
ذلك سكتت الأمم المتحدة على هذا العقوق من الوليدة المشاكسة (إسرائيل) .
وقبلت المنظمة (الأم) وليدتها عضواً كاملاً بها ، على الرغم من أزمة
العضوية الحادة التي كانت تواجه الأمم المتحدة في ذلك الوقت .
وظلت القضية الفلسطينية إحدى القضايا المزمنة في المنظمة الدولية ،
وصدرت بشأنها مئات القرارات ، بعدما تحولت مع مرور الوقت إلى ما سمي بـ
(الصراع العربي الإسرائيلي) ، ومن هذه القرارات ما يتعلق باللاجئين ، ومنها ما
يتعلق بوضع القدس ، أو موضوع التسوية النهائية . ودون الدخول في تفاصيل تلك
القرارات ، فإنه تجدر الإشارة إلى أن هذه القضية ظلت تعامل في أروقة الأمم
المتحدة (قضيةً للاجئين) منذ نهاية حرب 1948م وحتى حرب 1967م ، ثم
اعترفت الأمم المتحدة بعد حرب 1973م بمنظمة التحرير وأعطتها أهلية إدارة
الأماكن التابعة للقسم العربي من فلسطين بمقتضى قرار التقسيم ذلك القسم الذي
احتله اليهود أيضاً في حرب يونيو 67 ، كما هو معروف .

ولكن القضية أخذت منحًى آخر بعد زيارة الرئيس المصري السابق (أنور السادات) للقدس واعترافه بـ (دولة إسرائيل) ، فقد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هي الوسيط الرئيس فيما سمي بـ (عملية السلام) ، وأصبح خيار الحرب لاستعادة ما ضاع بالحرب في حكم الإلغاء ، وانحصر الحديث في انسحاب اليهود من الأراضي التي احتلوها بعد حرب 1967م بعدما كرست الأمم المتحدة بقراراتها أحقية اليهود في كل أرض اغتصبوها قبل تلك الحرب ، وكان اعتراف الكثير من الدول العربية بدولة اليهود فيما بعد إقراراً وتصديقاً لهذا الأمر ، وإضفاءً للشرعية عليه .

وبعد حرب الخليج التي أعقبتها مباشرة مداولات مدريد ، لم يعد للأمم المتحدة ما تفعله ، ولم يعد ليهود حاجة إليها ، حتى إنهم رفضوا حضورها مؤتمر مدريد ، ولم يبق لها علاقة بالقضية سوى القرارات المدرجة في أدراجها .

إذن ، فنصيب القضية الفلسطينية أو (الصراع العربي الإسرائيلي) من اهتمام الأمم المتحدة على مدى نصف قرن انحصر في عدد من القرارات والتوصيات المجملة أو المعطلة ، التي قننت الظلم ولم تنصف العرب ، ومع هذا : فإن العرب تقبلوها قسراً على أنها (أفضل الأسوأ) ، وبالنظر إلى أن الجمعية العامة للأمم المتحدة هي بمثابة (مجلس شعب) دولي تدلي فيه كل الدول الأعضاء بأصواتها ، فإنه تمارس فيها الطقوس الديمقراطية ، دون مساس بالمصالح الاستعمارية الغربية أو الشرقية ، فقد صدر عن تلك الجمعية عدد من القرارات التي تعبر عن تنوع وجهات النظر تحت سقف المنظمة الدولية ، لكن دون أن تملك تلك الجمعية سلطة تنفيذها أو فرض احترامها ، إلا بإذن خاص من الدول الكبار ، من تلك القرارات ، مثلاً : قرار صدر عام 1975م عن الجمعية العامة يدين (الصهيونية) ويعدها نوعاً

من العنصرية ، وقد وقفت خلف القرار الدول العربية والإسلامية والمتعاطفة معها ، ولكن وكما هو متوقع رفضت الولايات المتحدة القرار ، وهددت بقطع الأموال عن مؤسسات الأمم المتحدة إذا لم تلغه ، وظلت مبيتة النية لإلغائه ، حتى دعا الرئيس الأمريكي السابق (بوش) بنفسه الجمعية العامة إلى إلغائه دون قيد أو شرط ، فاستجابت راغمة ! ، فنبذت القرار في سطر واحد ، صدر في سبتمبر عام 1991م ، أما القرارات الأخرى التي أظهرت نوعاً من التعاطف مع بعض الحقوق الفلسطينية والعربية ، فقد وصفتها (مادلين أولبرايت) المندوبة الأمريكية لدى الأمم المتحدة بأنها قرارات (غير ودية) ومنافية لروح السلام ، ووعدت في زيارة لها إلى الشرق الأوسط في أكتوبر الماضي بأن تعمل لتعديل هذه القرارات في الدورة المقبلة للجمعية العامة ، إن هذه القرارات المرشحة للتعديل أو الإلغاء ، هي التي كانت تمثل في نظر العرب والمسلمين (عدالة) الشرعية الدولية ، وكانوا ولا يزالون يحلمون بمجيء اليوم الذي يستطيع المجتمع الدولي فيه أن يطبقها أو أن يفرضها على الدولة المدللة (إسرائيل) ، إنها قرارات تتكئ عليها المطالب العربية والفلسطينية في سعيها اللاهث نحو السلام العادل ، فهي لا تملك غير هذا السيف الخشبي ، لتحارب به في (معركة السلام) كما أسموها ، ولكنهم مع هذا يواجهون الآن الحرمان من هذا السلاح .

إن من القرارات المرشحة للحاق بقرار إدانة الصهيونية : القرار (194) (خاصة الفقرات الضامنة لحق اللاجئين في العودة (، والقرار (237) الخاص بعودة النازحين ، والقرارات المراعية لوضع القدس الخاص ، والقرارات التي تدين الاستيطان ، فماذا بقي ؟ ! ! إنه لم يبق إلا الخنوع (لشريعة) الولايات المتحدة بعد طول الخضوع لـ (شرعية) الأمم المتحدة ! .

ثانياً : قضية البوسنة والهرسك :

أطلقت بعض الأوساط الغربية على مسلمي البوسنة وصف : (الفلسطينيين

الجدد في أوروبا) ، وبالفعل ، فهناك أوجه تشابه كبيرة بين قضيتي الشعبين وطرق
المعالجة الدولية لهما ، وتأتي الأمم المتحدة أيضاً لتعكس في إداراتها للأزمة وجهة
نظر الغرب الصليبي فيما ينبغي أن تسير عليه الأمور هناك ، فكما فاضت المشاعر
الغربية النصرانية عطفاً على اليهود ضد المسلمين في فلسطين ، فقد أحاط هؤلاء
إخوانهم الصرب الصليبيين بالتأييد ضد المسلمين في البوسنة ، وتجلت مظاهر تلك
المعاملة لكل ذي عينين في تسلسل المواقف التي اتخذتها المنظمة الدولية ، ويخطئ
من يظن أن الأمم المتحدة كان لها دور سلبي تجاه الأزمة في البوسنة ، بل الحقيقة :
أن دورها كان في غاية الإيجابية ؛ من حيث السعي إلى تحقيق الأهداف الصليبية
الصربية والكرواتية في أقصر مدة وبأقل تكلفة .

لقد كانت الأمم المتحدة وراء قرار حظر تصدير السلاح إلى جمهوريات
الاتحاد اليوغسلافي السابق ، ذلك القرار الذي لم يطبق في الواقع إلا على جمهورية
البوسنة والهرسك ، التي كانت تتعرض وحدها لحرب الإبادة والتدمير على مدى
ثلاث سنوات ، أما صربيا : فقد ورثت الترسانة العسكرية الكبيرة للجيش
اليوغسلافي السابق ، وأما كرواتيا فقد أظهرت أحداث سقوط (كرايينا) مؤخراً أنها
لم تتأثر أبداً بالحظر الصوري عليها ، فالحظر كان فعالاً ومحكماً فقط على
البوسنيين المسلمين بأمر الأمم المتحدة ، وظل أمينها يردد بمناسبة وغير مناسبة :
أن رفع الحظر عن المسلمين لن يحل المشكلة ، بل سيطيل أمد الحرب ! ! فعبّر
بذلك عن رغبة منظمته في تصفية الوجود الإسلامي في أقصر وقت ممكن ، وتعللت
الأمم المتحدة في عدم تدخلها الجاد لوقف الحرب بأنها حرب أهلية ، متنكرة للحقيقة
الواضحة التي تتمثل في قيام دولة ظالمة بالاعتداء على دولة أخرى مجاورة
ومستقلة ، .. ولما تعالت بعض الأصوات منددة بازدواج المعايير في الأمم المتحدة ،

وتناقض مواقفها بين أزمتي الخليج والبوسنة ، برر بطرس غالي ذلك التناقض
بقوله : الوضع في البوسنة يختلف عن الوضع في الكويت ! وأعرب عن مخاوف
الأمم المتحدة من أن يؤدي التدخل في هذا النزاع إلى تهميش النزاعات الأخرى ،
بل وصل الأمر بأمين الأمم (المتحدة) إلى أن حذر مجلس الأمن من اتخاذ قرارات
متشددة مع الصرب ، قد يتعرض موظفو الأمم المتحدة بسببها للخطر ! وقصارى ما
فعلته الأمم المتحدة أن أعلنت حمايتها لبعض المناطق في البوسنة ، وأعلنتها
(ملاذات آمنة) [سربرنيتسا جورارجدة بيهاتش توزلا جيبا سراييفو] .. ثم
ماذا ؟ ! .. ثم نزعت منها السلاح في الوقت الذي بقيت فيه خمسة منها تحت الحصار الشامل من الصرب ، ثم ... وبعد أن ظهر زيف تلك الحماية ، تعلل بطرس غالي بأن إنقاذ تلك المناطق من الصرب يحتاج إلى ربع مليون جندي ! وهو ما لا تقدر الأمم المتحدة على حشده . لقد استمر الحصار تحت سمع وبصر الأمم المتحدة لسنوات طوال ، تحت دوي القنص والقصف والقذف ، حتى تفتقت قريحة (الشرعية الدولية) عن ترتيب تمثيلية هزلية ، يتقاسم بطولتهاحلف الأطلسي والمنظمة الدولية ؛ يدور (السيناريو) الموضوع لها حول قيام الحلف بتوجيه ضربات جوية للقوات الصربية إذا هددت الملاذات الآمنة ، بما يعطي انطباعاً بأن الأمم الغربية متحدة فعلاً ضد المعتدي لصالح المعتدى عليه ، ولكن الحقائق أظهرت بعد ذلك أن الأمم المتحدة (المنظمة) كانت تعطي الصرب المعلومات مسبقاً عن زمان ومكان القصف ، حتى تهيء المسرح بالرمال والأحجار وربما بعض الأبقار ، لتكون من ضحايا القصف ! .

وظلت الحماية الدولية معلنة ، وظلت المدن المحمية تتساقط بعد أن جردتها
الأمم المتحدة الظالمة من السلاح المتواضع الذي كانت تدافع به عن نفسها .

وفي النهاية أفسحت الأمم المتحدة للولايات المتحدة المجال ، تماماً كما فعلت
في فلسطين ، فسلمتها القضية برمتها ، لترى فيها رأيها وتنفذ فيها حكمها الذي لن
يكون أبداً منصفاً للمسلمين .

ماذا وراء اتفاق دايتون ؟

وجاء اتفاق (دايتون) للسلام في البوسنة ، على الطريقة الأمريكية ، كنظيره
في قضية فلسطين أو الشرق الأوسط ، جاء مُقنناً للظلم الذي رعته وحمته الأمم

المتحدة ، ودفعت البوسنة وحدها مثلما دفعت فلسطين من قبل ثمن الحرب وثمن
السلام ، فالاتفاق أنهى البوسنة والهرسك كما كانت قبل عام 1992م ، وانتصر
للتطهير العرقي بقوة القانون بعد قوة السلاح ، وأخضع المسلمين بعد أن سمح لهم
بسلطة وطنية لسيطرة الكروات في وحدة فيدرالية قسرية ، لتكون أشبه بحكومة
السلطة الوطنية الفلسطينية تحت سيطرة وقهر الحكومة الإسرائيلية ! .

ومثلما تقبل العرب في النهاية ما كان مرفوضاً من قرارات التقسيم قبل خمسة
عقود ماضية ، فقد أُكره البوسنيون أخيراً على قبول القسمة الضيزى نفسها ،
ووصف رئيسهم المغلوب على أمره (علي عزت بيجوفيتش (السلام الهزيل المرتقب
مع الصليبيين المتوحشين بقوله : (قد لا يكون سلاماً عادلاً ، إلا أنه أكثر عدلاً من
استمرار الحرب) ! .

ولكن ما لم يقله بيجوفيتش : هو أن ذلك السلام لا يضمن انتهاء الحرب ، فمن
يمنع الصرب أو الكروات من العودة إلى الحرب إذا عادت إليهم الشهية لالتهام
البقية ؟ ! إن الجواب على ذلك مخبأ في جيوب أساطين (الشرعية الدولية) وفي
طوايا المقررات الأممية للمنظمة الدولية .

فليملأ المتحدثون عن المسلمين الدنيا ضجيجاً بالحديث عن احترام تلك
الشرعية الدولية ، ولكننا نسأل ... هل لهذه (الشرعية الدولية) شرعية إسلامية ؟ !!

المسلمون والعالم

النفائس والعلمانية ! !

في تحليل الانتخابات التركية

بقلم : د . عبد الله عمر سلطان

هناك مثل ألماني شهير يفرض نفسه فرضاً كلما تابعنا أحداث عالمنا الإسلامي اليوم ، هذا المثل يقول : (إننا لا نكتشف طباعنا إلا عندما نتكلم عن طباع الغير ..) وحقّاً قد كشفت ردود الأفعال العالمية والعربية عن طبائع المتحدثين عشية إعلان نتائج الانتخابات النيابية في تركيا .. لقد كانت انتخابات تركيا تجرى لعقود من الزمن دون أن تثير في وسائل الإعلام المحلية والإقليمية والدولية ذلك الاهتمام المثير أو تلك الإثارة المهمة ! ! ، أما وقد طرح الإسلام بديلاً لنظام علماني متهرئ ، فإن مراسلي وكالات الأنباء و (ناسخيها) العرب ، والحكومات العدوة والصديقة أصبحت تترقب نتائج الانتخابات على أحر من الجمر ؛ حيث (البهارات الأصولية ..) التي أصبحت تثير شهية الجميع ، وتجعلهم مهتمين بمتابعة تفاصيل التفاصيل ، وكسور النتائج وإخفاقات المعسكر العلماني ...

أعلنت النتائج ، فإذا بحفيد الأمراء السلاجقة المهندس (نجم الدين أربكان) يجر الجميع إلى عبق التاريخ ... ويجبر المنسلخين من تاريخهم وهويتهم ومجدهم على الجلوس من جديد في رواق الباب العالي ، ويدعوهم إلى تناول وجبة (روحية) عبر تلال (إسلامبول (التي كانت تعطس فتصاب عوالم أوروبا بالقشعريرة ... ! سقى ! او تلك الأزمنة التي كانت الأرزاق فيها تحت ظلال الرماح ، فها هو الزمان يدور دورته فتجري أنقرة إلى أوروبا طالبة منها تذكرة دخول نادي أوروبا العلمانية ، فتصاب أوروبا بحالة من الصراحة والوضوح -هي غريبة عنها حتماً- لتقول : إن العلمنة طبقة قطيفة فاخرة ؛ لا بد أن تركيا تدرك أن وراءها روحاً صليبية تحتفل الآن بمرور تسعه قرون على بدء حملتها المضادة تجاه الشرق المسلم ... !

إذن : هذه الانتخابات الأخيرة استطاعت أن تمزج العوامل العقدية بالعُقد

التاريخية ، وأن تعري المعطيات الجمالية الدولية تجاه المنطقة الإسلامية ، وأن
تشابك بين الردود والتصريحات (الأصيلة) القادمة من عوالم الغرب بتلك المتمثلة
(برجع الصدى) الغربي العلماني الهوى ...
كانت الانتخابات التي أظهرت -كما يقول المثل الألماني (طباع القوم) - وإن
اختلفت ألسنتهم حينما يمسون تلك الكلمة/العقدة ...) الإسلام) .

العامل الدولي .. (وإسرائيل) :

لأول مرة تتدخل أوروبا وأمريكا مباشرة في انتخابات أناضولية ... لم تعد
تدري كما قال (كمال نوظلو) لمراسل التلفزيون الفرنسي : (هل الحملة هي لانتخاب
(شيراك) أم (تشيلر) ... ؟ وكان يسخر من تلك اللوحة الهائلة التي استخدمتها رئيسة
الوزراء التركية في حملتها ، ولترسيخ (أوربة) الملف التركي .. كان رئيس فرنسا
(جاك شيراك) يقبل رئيسة الوزراء التركية للتأكيد على أهمية المرشحه العلمانية
أوروبياً ... ، لقد عمل (شيراك) بالفعل على دعم المعسكر العلماني بصورة قوية ،
فقد قاد الاتصالات والضغوط التي أدت إلى قبول تركيا ضمن أعضائه المتمتعين
بمزايا اتفاقية الإعفاء الجمركي ، التي ثبت أنها لم تكن لتمر لولا أن فرص (حزب
الرفاه) في الفوز كان يتوقع أن تكون كبيرة .

دعونا نتأمل هذا الاتفاق وظروفه في هذا التقرير :

(يعتبر قرار البرلمان الأوروبي الخاص بالتصديق على دخول تركيا الوحدة
الجمركية مع الاتحاد الأوروبي -الذي اتخذ يوم 13 ديسمبر (الماضي) قبل
الانتخابات البرلمانية التركية بـ 11 يوماً- نصراً سياسيّاً كبيراً (لتشيلر) رئيسة
الوزراء التركية ، إذ إنها بذلك تكون قد حققت حلماً تاريخياً تُركياً بعد نضال دام 30
عاماً ، على أمل أن تحصل تركيا على العضوية الكاملة في الاتحاد الأوروبي عام
2000م وفقاً لتصريحات (تشيلر) .
إلا أنه بقراءة ذلك النص في ظل المعطيات السياسية الداخلية والخارجية ،
وفي إطار الشروط المفروضة لقبول عضوية تركيا ، مع الأخذ في الاعتبار الثوابت

السياسية التركية ، فإن النتيجة النهائية تشير إلى أنه نصر فارغ المحتوى ، استهدف
دعم (تشيلر) في حملتها الانتخابية أولاً وإركاع تركيا ثانياً .
فالرفض الأوروبي السابق لدخول تركيا استند إلى مبررات لم تزل قائمة رغم
محاولات التجميل بمكياج رخيص ؛ فسجِلّ تركيا الخاص بحقوق الإنسان لم يزل
سيئاً -وفقاً لرؤية منظمات حقوق الإنسان- وإن كان أفضل بكثير من دول أخرى
في المنطقة ، والمادة الثامنة في قانون مكافحة الإرهاب هي نفسها ، رغم تغيير
بعض كلماتها تلبية لرغبة الغرب ، والنواب السابقون لحزب العمل الديمقراطي
(أكراد) ما زالوا يقضون عقوبات بالحبس ، ولا يعني الإفراج عن قلة منهم سراً
محاولة لترطيب بشرة تركيا في مواجهة حرارة القضية الكردية ، بل إن
الإصلاحات الديمقراطية لم تلب الطلبات الأوروبية .
والسؤال المهم الذي يحتاج إلى إجابة ، هو : لماذا تم قبولها إذن ؟ .. بقراءة
متأنية لشريط الأحداث نجد أن (تشيلر) أعلنت -سواء في لقاءاتها مع القادة
الأوروبيين أو في تصريحاتها الصحفية- أنها إذا لم تنجح وتستمر في حكم تركيا ،
فإن الإسلاميين سيحكمون تركيا ويهددون المصالح الغربية ويُخلّون بالتوازن
الإقليمي والدولي .. ولذلك : فإنه يجب الإسراع (بأوربة تركيا (لقطع الطريق على
حزب (الرفاه الإسلامي (، خاصة وأن الرأي العام التركي أصبح في حالة غضب
من الرفض الأوروبي .
وبالطبع أكدت تقارير الاستخبارات واستطلاعات الرأي العام أقوال (تشيلر) ،
لذلك : ضغط الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) من ناحيته لقبول تركيا ، كما بذل
(شيمون بيريز) رئيس الوزراء الإسرائيلي جهوداً أيضاً في هذا الإطار ، من خلال
الرسائل التي بعث بها إلى كل من رئيس الوزراء الأسباني -بصفته الرئيس الحالي
للاتحاد الأوروبي وزعيم الحزب الاشتراكي- ، وإلى رئيس حزب العمال البريطاني

يطالبهما بدعم الطلب التركي مشيراً إلى أن ذلك حماية للمصالح الغربية ، وضمان
للاستقرار في المنطقة ، وتقوية للنظام العلماني الذي يقوم بدور مهم في مواجهة
الأصولية الإسلامية .

ولما كانت الانتخابات البرلمانية على الأبواب وسط إخفاقات داخلية كبرى
تتحمل مسؤوليتها (تشيلر) مقابل نجاحات لم ينكرها أحد من الخاصة أو العامة حققها
(حزب الرفاه) من خلال البلديات الكبرى التي يتولاها منذ مارس 1994م ... كان
لا مفر من دعم (تشيلر) ، التي أشارت الاستطلاعات إلى تراجع حزبها للمركز
الرابع ، بينما يحتل (الرفاه) المركز الأول ، وذلك بتقديم نصر سياسي تاريخي لم
يحققه أحد من رؤساء وزراء تركيا ، بهدف توظيفه في الحملة الانتخابية ، وهو ما
حدث بالفعل .

إلا أن ذلك الأمر لا يعني عدم استفادة أوروبا ، إذ يرى كل من (مسعود يلماظ)
زعيم (الوطن الأم) و (بولنت أجاويد) زعيم (اليسار الديمقراطي) وهما من مؤيدي
الوحدة الجمركية : أن شروط الوحدة مجحفة على الصعيدين السياسي والاقتصادي ،
إذ تم تقديم تنازلات في ملف القضية القبرصية ، كما أن مبلغ المليارات الثلاثة
المخصصة لتركيا يعتبر قليلاً جدّاً بعد إزالة الحواجز الجمركية .. ويريان أن تركيا
تنازلت كثيراً لأوروبا التي ستضغط أكثر ، وهو ما اتضح من طلب البرلمان
الأوروبي أن تجلس تركيا مع حزب العمال الكردي الانفصالي ، الذي تصفه
الحكومة والحكومات الأوروبية بالإرهاب ، ومع ممثلي الشعب الكردي لحل المشكلة
الكردية بالطرق السياسية .

وبالتالي : يكون الغرب قد حقق أهدافه كاملة دون أن يقدم شيئاً يذكر لتركيا
الدولة ؛ إذ إنها بذلك دخلت القفص الحديدي لفرض ما يريده الغرب عليها ، ويكفي
أن يكون حل القضية الكردية قد جاء من الغرب ، رغم أن هناك الكثير من

الأصوات التركية المخلصة طالما نادت بإيجاد حل سياسي للمشكلة ، مما يعني أن
الحل الخارجي لن يساهم مطلقاً في ترطيب العلاقات بين الأتراك والأكراد ؛ لأنه
ليس نابعاً من القلب ...) .
إذن : كان هناك دعم خارجي واضح وقوي للأحزاب العلمانية -لا سيما حزب
(تشيلر) - قبل الانتخابات وبعدها ، وقد اتضح ذلك أكثر بعد دخول حكومة
الصهاينة على الخط ، حيث عبرت (تل أبيب) على لسان سفيرها عن قلقها من فوز
(أربكان) وحزبه ، كما نشرت تقارير متعددة عن مشاورات ونصائح تقدمت بها
حكومة (بيريز) لحل الإشكال بين الأخوة والأخوات في العلمنة ، ويتمثل في إنشاء
حكومة ترأسها (تشيلر) لنصف الوقت و (يلماز) لنصف الوقت الآخر ، كما فعل
(رابين) و (شامير) من قبل .
ويمكن من خلال استعراض الصحافة ووسائل الإعلام الغربية استنباط خطوط
عريضة تحكم النظرة الغربية للوضع في تركيا ، وأهمها :
* أن تركيا لا تزال بعيدة عن أن تحكم بالإسلام ؛ فهناك سياسة متفق عليها
تسمى سياسة الصمامات المتعددة التي تكفل إبقاء تركيا في الطابور الغربي ، ويمثل
دعم السياسيين العلمانيين والقوانين اللادينية والثقافة المعادية للإسلام الصمام
(الديموقراطي) الأول ، بينما يشكل الجيش التركي المعروف بِهَوَسِهِ العلماني خط
الدفاع الثاني ثم يأتي بعد ذلك خط الدفاع الثالث المتمثل في التفتيت الداخلي لتركيا
في حالة اقترابها من تكوين دولة إسلامية موحدة .. وذلك عبر الأقليات والقوميات
المتعددة التي طالما أتقن الغرب عبر التاريخ توجيهها في سبيل تمرير مشروعه
التغريبي .
* أن العلمانية لا تزال قوية ومؤثرة وغنية ، فعلى الرغم من تصويت 21%
من السكان لصالح (الرفاه) ، فإن أكثرية السكان لا تزال تمنح أصواتها للأحزاب
العلمانية ، وهذا يعني أن (بني علمان يسيطرون على الميدان) ! ! .

* أن على الأحزاب العلمانية كما تقول صحيفة (وول ستريت جرنال) أن
تتحد ، أو بعبارتها : إن غياب الخطر الإسلامي المباشر (لا يشكل مبرراً لعدم
الاكتراث بتنامي قوة حزب (الرفاه) ، فقد أعلنت كافة الأحزاب العلمانية ردّاً على
حصوله على أكبر عدد من الأصوات : أنها سترفض الدخول في ائتلاف معه
لتشكيل الحكومة الجديدة ، وفي هذه الحالة : فإن كلاّ من حزب (الطريق القويم)
وحزب (الوطن الأم) اللذين حصلا مجتمعين على مئتين وسبعة وستين مقعداً في
البرلمان ، سيكونان بحاجة لتأييد : إما الحزب الديمقراطي اليساري (67 مقعداً) ، أو
حزب الشعب الجمهوري (49 مقعداً) من أجل تشكيل الحكومة ، وليس من شأن ذلك
سوى إبعاد حزب (الرفاه) عن الحكم لعدة سنوات أخرى ، إذا فشل أي ائتلاف
علماني آخر في تحقيق الإصلاحات الاقتصادية التي تحتاجها تركيا بإلحاح .

فالمطلوب هو دمج سريع لحزبي (الوطن الأم) و (الطريق القويم) في حزب
علماني واحد ذي اتجاه يميني وسط ، ويجب أن تكون في تركيا حكومة قوية
ومستقرة من أجل تحويل المؤسسات العامة إلى القطاع الخاص ، وإعادة هيكلة نظام
الأمن الاجتماعي الذي يعاني من (الإفلاس) ، وكذلك : إصلاح سياسات الدعم
الزراعي ، وإذا لم تقم مثل هذه الحكومة في تركيا ، فإن الطريق سيكون مفتوحاً أمام
حزب الرفاه لتولي السلطة بمفرده ، ودون الحاجة إلى الائتلاف مع أحزاب أخرى ،
قبل نهاية العقد الحالي) .

* أن الأحزاب العلمانية تترهل ، وهي فاسدة عموماً ، وقد سجلت الحكومة
السابقة مؤشرات انحدار خطيرة ، حيث زاد العجز في الميزانية ، وانخفضت قيمة
الليرة التركية بنسبة 130% في الربع الأول فقط من عام 1994م ، (ولسبع سنوات
مضت يعاني الاقتصاد التركي تضخماً شديداً حتى بلغ حالياً 70% ، وقد بلغ قبل

ذلك 150% ، لكن إجراءات التقشف التي اتبعتها (تشيلر) قد أنزلته إلى النسبة
الأولى ، ويكفي أن نعرف أن الدولار الأمريكي كان -لسبع سنوات مضت- يعادل
44 ليرة تركية ، أما حالياً فقد قفز عن الـ 57 ليرة .

ارتفعت ديون تركيا الخارجية منذ عام 1991م وحتى الآن من 5075 مليار
دولار ، كما ارتفعت ديونها الداخلية من 8 - 26 مليار دولار . والمشكلة ليست في
الديون فقط ، فكما هو معروف فإن الأطراف الدائنة تعيش على فوائد الديون ، وهي
نسبة عالية . وهكذا : فإن الميزانية الحكومية والمؤسسات غير الحكومية تُستنزف
سنويّاً بدفع فوائد الديون بالإضافة إلى أقساط الديون المستحقة ، الأمر الذي أثقل
كاهل الاقتصاد التركي خلال السنوات الأربع التي مضت ، وهي سنوات الانقلاب
في تصويت الجماهير التركية ، أي : إنها سنوات البحث عن حزب وأيديولوجية
تختلف عن أيديولوجية العلمانيين) .

* في المقابل تجُمِع التقارير الدبلوماسية والصحفية والإعلامية على كفاءة
(حزب الرفاه (التي تصفه صحيفة (وول ستريت جرنال) بأنه القوى المؤهلة لملء
فراغ الفساد القائم ، وتقول : (لقد تسارع بروز (حزب الرفاه) الإسلامي كقوة سياسية
لها ثقلها في السنوات الأخيرة ، مع تراجع الأوضاع الاقتصادية في ظل الحكومة
التي هيمن عليها كل من حزب (الوطن الأم) وحزب (الطريق القويم) .

لقد فاجأ (حزب الرفاه) المؤسسة التركية بتحقيق الانتصار في الانتخابات
المحلية في شهر مارس 1994م عندما تولى (حزب الرفاه) رئاسة بلديتي (أنقرة
واستانبول) وعدد آخر من المدن الرئيسة ، بالإضافة إلى حصوله على 19 بالمئة
من إجمالي الأصوات ، لقد أثبت (حزب الرفاه) قدرته وأمانته في ممارسة الحكم
المحلي عن طريق العمل الجاد (دون دعم كبير من حكومة حزب الطريق القويم) ؛
لحل مشكلات المناطق الريفية التي تتجاهلها الحكومات المتعاقبة منذ زمن طويل .

لقد نجح (حزب الرفاه) من خلال الحملة الانتخابية المنظمة على النمط الأميركي في
انتخابات ديسمبر الماضي ، لا سيما في المناطق الريفية الفقيرة ؛ حيث وجدت هذه
الحملة صداها في ظل السياسات الاقتصادية غير الموفقة لحكومة (تشيلر) . وأصبح
الحزب الأقوى المرشح لتشكيل الحكومة الجديدة . لقد استطاع (حزب الرفاه)
استغلال مشاعر الاستياء في أوساط الشعب التركي من ارتفاع نسبة التضخم ،
والبطالة ، وانخفاض قيمة العملة الوطنية بسرعة ، والفساد ، واتساع الفجوة بين
الأغنياء والفقراء ، والثورة الكردية المستمرة منذ أحد عشر عاماً في جنوب شرقي
البلاد .

ونتيجة لذلك : لم يعر الأتراك اهتماماً عندما خرجت (تشيلر) في حملاتها
الانتخابية لتعرض نفسها بأنها : (قاهرة الاتحاد الأوروبي) وباعتبارها أناتورك (أم
الأتراك) تشبهاً بكمال أتاتورك (أبو الأتراك) .

إذن : ليس هناك (هلع غربي) إلى الآن ، ولكن هناك (تهيئة) لخطوات لاحقة
من صعود المد الإسلامي في تركيا .

المسلمون والعالم

في الفلبين .. هل تحقق خطة (غزة / أريحا) أهدافها ؟

محمد عبد الله

لقد باتت خطة (غزة /أريحا (التي توصل إليها اليهود في فلسطين المحتلة و (م . ت . ف) بما تحمل في طياتها من تآمر على القضية الفلسطينية وإهدار للحقوق التاريخية والجغرافية للمسلمين الفلسطينيين أصبحت تلك الخطة رمزاً لكل قضية إسلامية يراد لها التصفية ، ولكل شعب مسلم أُريد هضم حقوقه الثابتة ، فبعد أن اعتمدت الخطة المذكورة على شبري (غزة / أريحا (من أرض فلسطين الممتدة من البحر إلى النهر ، واعتقد يهود بذلك أنهم قد نجحوا في طمس معالم قضية الشعب الفلسطيني ، وأثبتوا حقهم المزعوم في الوجود الأبدي على أرض الإسراء ، واعتقد عرفات وجماعته أنهم قد ربحوا البيع ، واستخلصوا من فم الأسد ما لا يمكن لغيرهم استخلاصه .

ها هي الخطة نفسها بحذافيرها وبأهدافها ذاتها ، يسعى أعداء الإسلام الصليبيين لفرضها على المسلمين في الفلبين ، عبر الطرف العلماني نفسه الذي يمثل تنظيماً شبيهاً ب (م . ت . ف) .

أوجه الشبه بين ظروف القضيتين :

كثيرة هي أوجه الشبه بين القضيتين الفلسطينية والفلبينية ، فالقضيتان تتعلقان باغتصاب واحتلال أراضٍ إسلامية ، وقمع شعب مسلم بالقوة العسكرية ، بل تكاد تتشابه (تكتيكات) طريقتي الاحتلال إلى حد كبير ؛ ومن ذلك : اعتماد المحتلين على سياسة الاستيطان باستجلاب المستوطنين غير المسلمين وزرعهم في أراضي المسلمين المغتصبة لتغيير تركيبتها السكانية ومعالمها الأصلية ، وهو ما يحدث في جزر الفلبين الإسلامية الجنوبية ، كما هو الحال في فلسطين .

أما على صعيد أصحاب البلاد الأصليين ؛ فنجد في كلتا الحالتين طرفين يختلفان في الأيديولوجية والمنهج والتصورات والطموح ، فالطرف الأول هم

(الإسلاميون) الذين وعوا قضيتهم وتناولوها من خلال المنظور الشرعي ، وتبنوا
خيار الجهاد للدفاع عن دينهم وكرامتهم السليبة ، واتخذوا ذلك طريقاً لتخليص
بلادهم من الكافر المحتل ، أما الطرف الآخر فهم (العلمانيون (الذين لا يهمهم إلا
إثبات وجودهم وتحقيق ذواتهم وتحصيل المغانم ، ولا يبالون في سبيل ذلك بالثمن
الذي يقدمونه من مذلة ومهانة وتفريط في الواجبات والأوامر الشرعية ، ولايعيرون
اهتماماً للدماء التي سالت والتضحيات الجسام التي قدمت ، ولا همّ لهم إلا ما
يتهافتون على تحصيله اليوم ! ! .

واليوم : أراد أعداء الإسلام من يهود وصليبيين وأعوانهم طي ملفي القضيتين
بالطريقة نفسها والأسلوب والإخراج ذاته ، فبعد أن حقق اليهود خطوات على
الصعيد الفلسطيني جاء الدور على قضية مسلمي الفلبين لوأدها بالأسلوب نفسه .

(غزة / أريحا) الفلبينية :

لما استعصى أمر المسلمين في الفلبين على الحكومة الصليبية المغتصبة ،
وفشلت جميع خططها لاحتوائهم ، وعجزت عن قهرهم وإخضاعهم بالطرق
العسكرية القمعية على مدار السنوات الطوال الماضية ، وأصر مسلمو الفلبين
بدورهم على مواصلة جهادهم ؛ حتى يحققوا النصر ويتحرروا من طغيان هذه
الحكومة التي أيقنت أنها لن تصل لأهدافها بالطرق القمعية التي اعتمدت عليها في
السابق ، وبعد أن ازدادت حدة العمليات الجهادية وتصاعدت كمّاً وكيفاً في
مواجهتها ، وسيطر الإسلاميون بشكل كبير على دفة التوجيه في المجتمع ، حيث لاقوا تأييداً
واسعاً بين صفوفه ، الأمر الذي جعل هذه الحكومة تستشعر الخطر المحدق بها لو
تركت الأمور تمضي على هذا النحو ، فلم يعد لها بد من الاعتماد على مثل هذه
المؤامرة الجديدة لتدارك أمرها قبل فوات الأوان ، فأعلنت بدورها عن عزمها على
عقد مفاوضات (سلام !) مع المسلمين ، ولم تجد الحكومة الصليبية أفضل من

الجبهة القومية (العلمانية (لتمرير مؤامراتها عن طريقها ، لما يتسم به القائمون عليها
من مؤهلات للقيام بهذا الدور من : تعطش للسلطة ، وحب للظهور ، ورغبة في
الزعامة ، أما من جهة العلمانيين أنفسهم فقد لاحت لهم الفرصة التي لا تفوّت
لتنصيبهم على رؤوس المسلمين ، الذين نبذوهم وانفضّوا من حولهم بعدما تبين لهم
حقيقة منهجهم ، والأطماع الشخصية التي يضمرونها في أنفسهم ، والمصالح الذاتية
التي يسعون لتحقيقها .

وكل هذه العوامل هيأت الظروف للطرفين ليجتمعا على هذه الخطة ليحقق كل
طرف مأربه من خلالها .

الأهداف الحقيقية وراء هذه الخطة :

حين لجأت الحكومة الفلبينية لهذه المؤامرة لم تكن تقصد بذلك التخلص من
معاناتها مع المسلمين وتركهم لحال سبيلهم ، بل سعت لتحقيق عدة أهداف على
أصعدة شتى فشلت في تحقيق أي منها بسياستها الأولى .

ويمكن تلخيص هذه الأهداف فيما يلي :

1- قطع الطريق على التيار الإسلامي المتنامي ، والحد من نشاط الحركة
الجهادية الصاعدة ، وعدم تمكين القيادات الإسلامية من احتلال مواقع الصدارة في
قيادة المجتمع المسلم في الفلبين .

2- إحكام سيطرتها بشكل نافذ ودائم على مناطق المسلمين الجنوبية ، وهو
الأمر الذي لم تتمكن من تحقيقه على مدى السنوات الماضية منذ استقلال دولة
الفلبين عام 1946 م وحتى اليوم ؛ وذلك من خلال سيطرتها على الميلشيات
المسلحة التابعة للجبهة العلمانية ، الذين سيصبحون جزءاً من الحكومة وقواتها ،
وبالتالي : تتمكن قواتها العسكرية والأمنية من الانتشار في هذا المناطق بحرية تامة
وأمان نسبي كلما دعت الضرورة لذلك (حسب ما نصت عليه مسوّدة الاتفاق
المبدئية) .

3- توفير الأموال والدماء التي تتكبدها في كل مواجهة مع المجاهدين ، حيث

ستوكل مهمة (التطهير الأمني) وحفظ النظام وفرض قانون الدولة لتقوم الميلشيات
المسلحة المحسوبة على المسلمين بها .

4- خطب ود الدول الإسلامية التي تربطها بها علاقات اقتصادية حيوية ، وتحسين صورتها أمام هذه الدول وشعوبها المسلمة ؛ بتظاهرها بأنها قد منحت المسلمين حريتهم وأحسنت إليهم ، ومن جهة أخرى : استقطاب رؤوس الأموال الإسلامية لتنفيذ مشروعات استثمارية في جنوب الفلبين بالإضافة إلى الاستفادة من المنح المالية التي ستقدمها بعض الدول الإسلامية لدعم السلطة الجديدة (الحكم الإداري) مما سيوفر للحكومة المركزية ما كانت ستنفقه من ميزانيتها الاقتصادية في المنطقة .

5- التفرغ نسبيّاً لحل بعض مشكلاتها الاقتصادية المزمنة ، وتوفير جانب من نفقات الدفاع التي ترهق ميزانيتها المالية وتستنزف منها ما قيمته مليون (بيسوز) يوميّاً (63 ألف دولار) حسب ما صرح به رئيس الفلبين نفسه .

6- استغلال الثروات الطبيعية من (أخشاب ومعادن (التي تذخر بها بلاد المسلمين الجنوبية ، ولا تستطيع الحكومة الوصول إليها في ظل الظروف الحالية ، حيث لا يمكنها المسلمون من ذلك .

ومما يؤكد سعي الحكومة في تحقيق هذه الأهداف : الموافقة الفورية التي أبدتها فيما يتعلق بإدراج المناطق التي تشهد نشاطاً كبيراً وسيطرة للمجاهدين ، ولا تجد لها فيها مستقراً ضمن الاتفاقية .

هل تحقق الخطة أهدافها المرسومة ؟ ! :

مما لاشك فيه أن الحكومة الفلبينية تعلق آمالاً كبيرة على تحقيق أهدافها من وراء هذه الخطة أو أكثرها على الأقل في هذه المرحلة ، ولكن ليس معنى هذا أنها قد فرطت في أهدافها الكبرى بعيدة المدى ، أو أنها ستترك السلطة التي ستعينها تفعل ما تشاء وتتصرف بحرية في المهام التي أوكلت إليها دون إشراف ومتابعة منها ، فمن جهتها : ستحاول هذه السلطة إثبات نجاحها فيما أوكل إليها ولو بالقوة .

عقبات في طريق الخطة :

إن حرص الطرفين على إنجاح الخطة وتحقيق أهداف كل طرف منها لا يعني بالضرورة نجاحها الفعلي ؛ ذلك أن هناك عقبات كبيرة في طريقها خارجة عن إرادة الطرفين ، وأهمها :

أولاً : الرفض الشعبي العام لهذه الخطة وحالة السخط والاستياء التي تتعرض لها الجبهة لإقدامها على هذه الخطوة وعدم الالتفات لرغبة الشعب الحقيقية في التخلص من السيطرة الصليبية عليهم .

ثانياً : الرفض الجماعي من قبل الجماعات الجهادية والجمعيات الإسلامية الفاعلة للخطة ومقاطعتها بشكل تام .

ثالثا : إصرار القادة الميدانيين والمجاهدين (في الخنادق) على مواصلة جهادهم ضد الحكومة ، حتى لو منحت الجبهة ذلك الحكم الإداري .

وهذه الأسباب بل بعضها كفيل بإفشال هذه الخطة طالما أنها لم ترد للمسلمين حقوقهم وتحقق آمالهم ، وافتقادها لعنصر التأييد والرضا الشعبي وحده كفيل بالقضاء عليها في مهدها ، ولن تتمكن الجبهة العلمانية إن شاء الله من مواجهة الشعب المسلم المعارض بأكمله ، وفي هذه الحالة لن تترك الحكومة الأوضاع بدون معالجة جديدة ، وستعود للتدخل كما كان الحال من قبل ، هذا إذا لم تغير الحكومة رأيها وتتراجع عن التنفيذ بعد إتمام الاتفاق لمصلحة أخرى تراها كما حدث عقب (اتفاقية طرابلس) عام 1976م التي لم تُنَفّذْ من بنودها بنداً واحداً حتى اليوم على الرغم من مصادقة الحكومة الليبية التي استضافت المفاوضات ومنظمة المؤتمر الإسلامي عليها ! ! .

وبعد .. فهذه عينة من عينات المكر الصليبي والدولي ضد المسلمين في كثير من ديار الإسلام ، إن (خطة غزة /أريحا) في فلسطين جعلت السلطة في فلسطين أسيرة الحكم الصهيوني ، بل جعلتها عيناً وعصاً بيد (يهود) ضد شعبها ، فهل يفطن شعب مورو المسلم لهذه الخطة والمؤامرة ؟ ! أم تكون سبباً لتقاتل المسلمين مع

بعضهم البعض ، والصليبيون يتفرجون ، ثم لا يحصل للمسلمين نصر سوى
الحرب الأهلية التي لا تبقي ولا تذر ، وهذا هو المتوقع إن لم يتدارك هذا الشعب
وقادته ومجاهدوه الموقف برفض الخطة ، حتى يعطى المسلمون حقوقهم كاملة . ثم
إن على قادة الجبهة الذين وقعوا الخطة الجديدة أن يفيئوا إلى الله ويحرصوا على
مصالح الشعب المسلم في الفلبين ، وألا يكونوا مع الحكومة ضدهم طمعاً في عرض
زائل ، وعليهم تصحيح مسارهم والتعاون مع إخوانهم على البر والتقوى ، وتلافي
أساليب البغي والعدوان . فحتى متى يخسر المسملون جل قضاياهم بحلول هزيلة
وتصرفات حمقاء ، هلاّ اجتمعوا وكانوا يداً واحدة ، فإنهم حينئذ سيأخذون حقهم
كاملاً .

هذا ما ندعو إليه ونحذر من خلافه ، والله المستعان .

في دائرة الضوء

جهود الأسلمة وعوائق التقليدية

بقلم : خميس بن عاشور

الاحتواء من الأساليب التي يستخدمها خصوم الحل الإسلامي وذلك بهدف
توظيف قوة الإسلام والمسلمين لأغراض العلمنة وأهداف النظام العالمي الجديد .
والذي نهتم له في هذا الحديث ليس العالم الغربي ، وليست الأنظمة والدول العميلة
له ، ولكن الذين نقصدهم بالحديث هم أولئك الذين يعملون من أجل إرجاع الإسلام
إلى مكانته في مجتمعاتهم ودولهم وتخليصها من هذا الجمود الفكري ، وفي إطار هذا
الاحتواء أصبح كثير من العلماء والدعاة يستمرئون وضعهم ، ويطمئنون إلى
عدوهم ، بل صاروا من العناصر التي تسهم في تلك الجهود من خلال المشاركة في إثراء
القضايا المطروحة لخدمة النظام العالمي ، وتجاهَلوا قضايا الإسلام الأساسية ،
وواجب العمل من أجل تحقيقها ، وما يتطلبه ذلك من قوة تغييرية كبيرة من أجل
كسر تلك الحواجز المادية والمعنوية التي تكونت في فترات هجران تطبيق الشريعة
والتفريط في سلطة التنفيذ التي هي شرط لهذا التطبيق .

قال الماوردي : (فليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه وطُمست
أعلامه) [1] . إن من أسباب هجر الشريعة وعدم التفكير في تطبيقها :
إقصاءها من الواقع ، وهذا ما كرس مقولة عدم صلاحيتها للتطبيق في
هذا العصر ، فالضرورة إذن تبدو ملحّة لتكوين قوة معنوية كبيرة تسهم
في تحطيم هذه الحواجز ، التي نشأت في زمن القوانين الوضعية
الظالمة داخل مجتمعاتنا ودولنا .

إن أولئك الذين لا يزالون يبحثون عن صيغة اجتهادية لعرض الحل الإسلامي
كان حريّاً بهم أن يراجعوا حساباتهم ويقرؤوا قوله (تعالى) : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ
دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً ﴾ [المائدة : 3] . فالإسلام قد
كمل وتم ، ولم يبق إلا تطبيقه تطبيقاً شرعيّاً حسب مقتضيات كل عصر دون
المساس بالثوابت الاعتقادية والتشريعية ، ومن المفيد إزالة تلك العقدة التاريخية لدى

كثير من المثقفين المسلمين والدعاة ؛ التي تتمثل في المشاعر الأبوية نحو الدعوة ،
فحماية الدعوة قبل أن تكون بالأشخاص يجب أن تكون بالمبادئ التي شرعها الإسلام ، فالمبادئ هي التي يحتمي بها الأشخاص وليس العكس صحيحاً ؛ لأن التنازل عن
هذه المبادئ لحجة مصلحة هذه المبادئ هو (الإهانة المهذبة) لها ! ! .

إن كثيراً من المدائح التي قيلت في مزايا الشرع الإسلامي بعد سقوط الخلافة
إنما هي في الغالب عمليات دفاعية سببها الانبهار والشلل الحضاري ، وبسبب
المعاناة التي يتعرض لها دعاة الإسلام ودعاة تطبيق الشرع ؛ فإن كثيراً منهم يميلون
نفسيّاً نحو استصعاب تحقيق الحل الإسلامي ، ومع ذلك فلا يمكنهم التملص من
واجب العمل على إرجاع سلطة التنفيذ التي هي شرط للتطبيق كما سبق . وتطبيق
الحكم يجب أولاً كما يراه المحققون من الفقهاء والأصوليين لعلة أولى هي الامتثال
لأمر الله (عز وجل) ، أما إدراك المقصد أو الحكمة فليس ذلك شرطاً في تطبيق
الحكم ، وذلك لأن إدراك المقصد عمل اجتهادي يقوم به عقل المجتهد الذي قد
يصيب وقد يخطئ ، ولذلك فلا يعلّق التطبيق على إدراك المقصد أو الحكمة ؛ لأن
كل ذلك متحقق دون ريب بعد تطبيق الحكم .

سؤال يطرح نفسه :

ولو سُئلنا ذلك السؤال التقليدي ، وهو : كيف نطبق الحدود مثلاً والأمة غير
مؤهلة ومستعدة لذلك ؟ فالجواب : شرط التهيؤ والاستعداد هو تطبيق هذه الحدود
فعلاً ، وسوف تتهيأ بإذن الله ، ولنا أن نقول : إن الحدود من حقوق الله التي لا تنفع
فيها شفاعة ولا عفو ، فمن خوّل لنا التعطيل لحكم هو من حقوق الله (عز وجل) ؟ ،
إنه لا يمكننا مطلقاً أن ندعي أننا أكثر رحمة من الله نحو العصاة والمذنبين ، ولذلك
فإن التردد في فعل الخير ليس من ورائه خير ، وإن منهج التطبيق في الإسلام لا
يحتاج إلى بيان أفصح وأوضح من السير فيه قدماً . وعندما ننطلق من عمق الأزمة

من أجل البحث عن حلول موضوعية فإننا لا نجني سوى الخيبة والنتائج الفاسدة ،
وكذلك فإن الانطلاق من واقع التقليد بمفهومه الأصولي الفقهي وحتى بمفهومه
السياسي [2] لا تكون الثمرة والنتيجة منه إلا تقليداً مركّزاً ، سِمَتُهُ الأساسية :
التدليس والتمويه والعيش في ظلال الوهم ، الذي يعتبر عاملاً رئيساً في عملية الهدم
الفكري الذي تعيشه بعض العقليات المذهبية والفعاليات الإسلامية اليوم .
إن النظر في مجالات الشرع يفتقد عند مثل هذه الفئة إلى البعد المستقبلي الذي
وضعه الشارع الحكيم ؛ أي إن بعض الصفات التي تميز العملية التشريعية شبه
منعدمة في نفس هذا المنظور الضيق ؛ فالله (عز وجل) عندما وضع هذه الشريعة
وأرسل بها رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، إنما فعل ذلك بعلمه بما كان وبما هو
كائن ، أي : إن البعد المستقبلي لعملية التشريع الإلهية يجب أن نضمنها عملية فهمنا
للإسلام عقيدة وشريعة ، وذلك من أجل ألا نقع فيما هو تقديم بين يدي الله ورسوله ،
وكذلك حتى لا نقع في اجتهاد هو في مقابلة نص صحيح بالنسبة لمجال التشريع ،
أو أن نجتهد لإيجاد عقيدة بديلة عن عقيدة الوحي الإلهي كالذي اقترفته مدرسة
التأويل قديماً وحديثاً .
إن فرض الإسلام على الواقع هو الذي يقضي على تلك المحاولات المنحرفة
لفرض الواقع على الإسلام لأن منهج الإسلام تغييري النزعة ، وهذا يدل على أنه لا
يقبل المواجهة إذا كانت بدافع سد الثغرات وتعويض النقائص ، بالإضافة إلى أن
المصدرية الإلهية للإسلام لا تقبل إلا أن يكون الإسلام فوق الجميع ، وقديماً قال
الشاعر :

إذا غامرت في شرفٍ مروم   فلا تقنع بما دون النجوم
فَطَعْم الموتِ في أمرٍ حَقيرٍ   كَطَعْمِ الموتِ في أمْرٍ عظيمِ

وكما سبقت الإشارة إليه ، فإن التقليد الذي يحاول أصحابه إلباسه لباس
الإصلاح والتجديد ، إنما هو الداء العضال الذي يجب إزاحته من ميدان العمل نحو

إرجاع الشرعية للعمل الإسلامي وترشيده ، حتى لاينحرف عن منهج الرسالة
الإسلامية التغييري ، الذي من شأنه أن يُحوّل ما أمر الله ورسوله بتحويله من
عادات الأمم وتقاليدهم وأفكارهم وسلوكياتهم ، وإن هذه العملية الانتقائية للتفكير
والسلوك هي التي من شأنها وضع الأسس والخصائص التي يجب أن تميز المجتمع
الإسلامي العالمي من غير تمييز بين الأجناس والشعوب ؛ وذلك حتى لا تصبح
النظرات الضيقة للمجتمع الإسلامي عائقاً في وجه الرجوع الميمون نحو الإسلام ديناً
ودولة ، وحتى لا تصبح القومية والوطنية وجهاً من وجوه الانغلاق نحو الذات ،
وبالتالي بروز النظام القبلي والعشائري في أقنعة جديدة تخفي وراءها معالم
(الأرستقراطية) التي لا تقبل التغيير ، ومع ذلك : فإنه لا يمكننا أن ننكر اعتراف
الإسلام بالخصائص والفروق بين الأفراد والمجتمعات ؛ لأن الشارع الحكيم قد
راعى ذلك أثناء عملية التشريع ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ
وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم : 22] .
إن هذه النزعة التقليدية بالنسبة لنا نحن المسلمين لها جذور دينية ، وهي
تهدف إلى المقاصد نفسها التي تتركز أساساً فيما يسميه بعضهم بـ (الآبائية) [3]
التي ترفض التغيير وتتمسك بالتقليد ، هذا التقليد الذي يعرفه الأصوليون بأنه :
(قبول قول الغير من غير معرفة دليله) [4] ، أو هو (قبول قول بلا حجة ، وليس
ذلك طريقاً إلى العلم لا في الأصول ولا في الفروع) [5] وقد نهى القرآن الكريم
المسلمين عن أن يَقْفُوا ما ليس لهم به علم ، قال (تعالى) : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] .
والتقليد في أمور الدين هو الأخطر ؛ لأنه يسهم في مزاحمة المصدر الحقيقي
للشرع الذي هو الوحي الإلهي (كتاباً وسنة) ، وهنا يمكننا أن نطرح سؤالاً لنجيب

عليه ، وهو : لماذا لا يريد المسلم أن يترك دينه على الرغم من أنه في كثير من الحالات لا يلتزم به سلوكاً وتفكيراً ؟ والجواب يمكن أن يكون كما يلي : إن تلك الآبائية على الرغم من سلبياتها وخطرها هي التي حافظت على هذا الانتماء الذي ترسخ عبر الأجيال ليصبح عادة وتقليداً ، ورغم أن هذا التقليد وهذه العادة لا تدفعنا إلى التشكيك في هذا الانتماء مثلما يفعله أهـل النظر وأهل الكلام إلا أننا سنتخذ هذه الآبائية نقطة للانطلاق الذي سيرتكز على العلم وعلى الاتباع .

إن البحث عن الحلول من خارج الموضوع أي الإسلام لا يمكن أن يقود إلى نتيجة سارة بلا ريب ، فلقد ذمّ الإسلام التقليد بينما حث على العلم وعلى الاتباع للوحي .

إن عدم معرفة المسلم دليل السلوك والاعتقاد هو الذي أحال التدين إلى عادات وتقاليد فاقدة لصيغ الاقتناع ؛ لأنه لا يمكن أن يقتنع المسلم بدينه إلا إذا كان هذا الدين مدلّلاً عليه ، وحينئذ ستنبعث الروح والحياة في تلك التقاليد والعادات لتصبح عملاً مثمراً وعبادة خالصة يجني من ورائها المسلم ثمار التزكية والعمل الصالح ، وإنما يتم ذلك بمعرفة أدلة السلوك والاعتقاد الشرعية من مظانها ومصادرها .

إن هذه العملية التي تهدف إلى تغيير جذري في منهج الاعتقاد والعمل هي التي يمكن أن نطلق عليها إصلاحاً وتجديداً فعلاً ، ومع ذلك فإن هذه العملية ستصطدم بعوائق التقليدية والآبائية ، ولكن سرعان ما ستنهار هذه العوائق لسبب يسير ، وهو : أنها لم تكن مشيدة إلا على الأوهام والأباطيل .

---

(1) الماوردي : أدب الدنيا والدين ، ص 78 .
(2) انظر : د أحمد زكي بدوي : معجم المصطلحات السياسية والدولية ، ص 148 ، د عبد الوهاب الكيالي وآخرين : موسوعة السياسة ، ص 777 .
(3) جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم .
(4) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه ، ص 314 .
(5) أبو حامد الغزالي : المنخول من علم الأصول ، ص 387 .

متابعات

هل يستحق نجيب الكيلاني أن يكون رائداً ؟ !

بقلم :محمد الدوسري

لقد قرأت في العدد 92 (ربيع الثاني 1416ه) ، مقالة تتحدث عن (نجيب الكيلاني) بصفته رائد القصة الإسلامية المعاصرة ! . وكثيراً ما أتوقف وأتعجب عند مثل هذه المقالات التي تتحدث عن هذا الرجل ، ومما يزيد في عجبي أن أهلها لا يتورعون عن إطلاق صفات : الكاتب الكبير ، الرائد .. إلخ ، على نجيب الكيلاني (رحمه الله) ، ويتغاضون بشدة عن سقطاته التي لا تكاد تخلو منها قصصه ورواياته ! ، بل إن أحدهم قال في أحد مهرجانات الجنادرية المقامة في الرياض : إنه يطمأن على أولاده تمام الاطمئنان إذا قرؤوا روايات الكيلاني ! ، وأخذ يكيل له الشكر كيلاً وافراً ! .

وكتابتي لهذا التعقيب ليست اعتراضاً على الاحتفاء بالرجل ، ولكنها رجاء موجه للأدباء الإسلاميين وخصوصاً مؤسسي رابطة الأدب الإسلامي أن ينحوا العاطفة جانباً ، ويتأملوا الأمر مليّاً ؛ فَلَكَمْ ولَكَمْ عانى العمل الإسلامي من الانسياق وراء العاطفة ، ووضع الأشخاص فوق مكانتهم الحقيقية ، والذي نرجوه من إخواننا الأدباء هو : أن يضعوا الأمور في نصابها ؛ فنجيب الكيلاني هذا كان يضَمّن رواياته مشاهد جنسية يخجل المسلم من قراءتها ، ولكن يبدو أن بعض الأدباء الإسلاميين (سامحهم الله) قد تأثروا تأثراً غير مباشر بالروايات الحديثة التي لا تتعفف عن إقحام الجنس في ثنايا القصة ، فأصبحوا لا يرون ضيراً في هذا الأمر !، وقد قيل : كثرة الإمساس تقلل الإحساس .

ولَكُم أن تتخيّلوا ماذا يقع في حس المراهق ، وهو يرى بطل رواية (ليالي تركستان) لـ (نجيب الكيلاني) ، لا يفتأ يضم ويُقَبّل عشيقته ! ، ولو أن المؤلف ينبهه إلى أن هذا الأمر محرم لكان أهون ، ولكنه لم يفعل ؛ فماذا تتوقع أخي القارئ أن ينمو في حس المراهق : حب الفضيلة ، أم حب الرزيلة ؟ ! .

ولقد أمسك بي أحد الإخوة ، وقال : (يا أخي كيف تقولون : إن نجيب

الكيلاني أديب إسلامي ، وأنا قرأت له رواية (رأس الشيطان) ، فوجدت فيها من
المشاهد ما يندى له الجبين) ، ولقد حرت جواباً في البداية ، فلم أدر ما أقول ،
ولكني تداركت نفسي وذكرت له بأن الرجل أخطأ ، وكان يتوجب عليه أن يرتفع
بمستوى القصة عن هذه القذارات ، فلا يكفي أن تكون روايته يدور رحاها حول
موضوع إسلامي .

ويجب على أدبائنا الإسلاميين ، أن يكونوا على شجاعة حقيقية وواقعية في
التعامل مع جميع الأدباء ؛ فلا يعطوا أحداً أكبر من حقه ، ولا يزنوا الحق
بالرجال ؛ فإذا تكلموا عن نجيب الكيلاني ، فيجب أن يذكروا أخطاءه وبوضوح كامل ؛ فخطأ
الرجل في تضمينه المشاهد المخلّة بالأدب أمر ليس بالهيّن ، فالرسول صلى الله
عليه وسلم لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً . ونجيب الكيلاني لا يرى بأساً في إقحام
المشاهد الجنسية في ثنايا الرواية ، فهو يقول : (.. وإذا كان الزنا صورة الجنس
المنحرف الحرام وباءً خطراً ، أفلا يمكن تناوله بما يستحقه من تقبيح وتنفير ؛ وما
يصاحبه من مقدمات وإغراءات وسقوط ؟) [1] .

فهو كما نرى لا يمانع أن يتناول مقدمات الزنا ، والإغراء ، والسقوط ! ، مع
أنه يذكر أن (الأدب الإسلامي حينما يحتفي بقضايا المجتمع والعصر فإنه ينهج نهج
القرآن الكريم ، وأحاديث نبينا المختار ، صاحب الرسالة العظمي صلى الله عليه
وسلم) [2] ، وأورد دليلاً : قصة يوسف (عليه السلام) ، ولكنه للأسف لم ينضبط
بهذا الضابط ، فالقرآن في قصة يوسف (عليه السلام) ، والسنة في قصة عابد بني
إسرائيل الذي أغراه الشيطان بالزنا ، لم يتناولا الجنس بالطريقة التي فهمها نجيب
الكيلاني وحاول إقناعنا بها ! .

ونجيب الكيلاني لا يرى بأساً من ظهور المرأة على المسرح ! ، معللاً ذلك
بالتعليل التالي : (... لأن هناك قضايا وأموراً حساسة لا يمكن أن تقدم إلا من
خلال المرأة ، فضلاً عن أن (وضعية) المرأة في المجتمع وما يلابسها من محاذير

وحرج وسلبيات ، لا يمكن تناولها إلا بالتواجد المباشر للمرأة) [3] ! .
ومشكلة
نجيب الكيلاني ومعظم أدبائنا ، هي أنهم لم يحاولوا الانعتاق من أسر الأشكال الأدبية
الغربية ؛ فمن الذي قال بضرورة المسرح في الأدب الإسلامي ؟ ! ، ففيما عداه
غنية وفضل ؛ ثم : لماذا لا يقوم الأديب المسلم الملتزم بمعالجة مشكلة ظهور المرأة
إن كان ولا بد من مسرح فيبدع لنا مسرحية تتطرق لقضايا المرأة بدون ظهورها
على المسرح ؟ ! ! .

وفي تاريخنا خير مثال على ذلك ، فلقد قام الفنان المسلم المتقدم باستبدال
التصاوير المحرمة ، بالخط العربي والنقوش الإسلامية .

ورجاؤنا الحار من الأخوة الأدباء الذين أخذوا على عواتقهم مهمة تقديم أدب
إسلامي متميز خاصة أعضاء رابطة الأدب الإسلامي أن يؤطروا الأطر التي
تتناسب مع إسلامنا فعلاً ، وأن تكون أسس وبدايات جهودهم وتنظيرهم ، ونقدهم ،
وإبداعاتهم ، مستمدة (بكاملها) من الإسلام ؛ فلا نرضى بأن يقدموا لنا كلاماً فاحشاً ،
ثم يقولوا لنا : هذا أدب إسلامي ! ، أو يقدموا لنا قصة أو رواية تتخللها انحرافات
عقدية ، ثم يقولوا لنا : هذا إبداع من إبداعات الأدب الإسلامي ! .

ونرجو منهم أن يكونوا صرحاء مع أنفسهم ، ومع غيرهم من الأدباء ، فلا
تكون المجاملة هي الفيصل في تقرير إبداع هذا الكاتب أو ذاك ، وأن يتقوا الله في
إخوانهم المسلمين ، وليقدموا ما يعكس روح دينهم ، وينفع أمّتهم ، ويرسخ في أبنائها
حب الله ورسوله ثم حب الفضيلة .

تعقيب الكاتب

بعد ورود وجهة نظر الأستاذ محمد الدوسري حول الموضوع ، عرضناها
على الكاتب الأديب الناقد محمد حسن بريغش ، فكتب التعقيب التالي :

لقد تفضل الأخ الكريم بالكتابة عن نجيب الكيلاني (رحمه الله) ناصحاً ومحذراً
الأدباء الإسلاميين والنقاد : ألاّ يطلقوا صفات الريادة والمديح ، وألا يُؤْثروا المجاملة

في نقدهم ، وألا يتغاضوا عن الانحرافات والأخطاء عند الكيلاني وغيره ، وألاّ
ينساقوا وراء العاطفة في تقويم الأشخاص ، فيضعوا الأشخاص فوق مكانتهم .. إلخ .

وذكّرهم بمسؤوليتهم أمام الله (عز وجل) ، لكي يقدموا ما يعكس روح دينهم
وينفع أمتهم ، ويرسخ في أبنائها حب الله ورسوله ثم حب الفضيلة .

وأشكر الأخ الكريم الذي عقّب على ما كتبتُه عن نجيب الكيلاني في العدد
(92) من مجلة (البيان) ، ولقد كانت غيرته على دينه ، وخوفه على شباب الأمة
من الانحراف ، وحماسته في الصّدع بالحقيقة باعثاً لهذا التعقيب ، فجزاه الله خيراً ،
وله منا الشكر .

أما اعتراضات الأخ فلها ما يبررها ، ولكنه وقع في مبالغات وأحكام متعجلة ؛
لأن ما نُشر في البيان عن الكيلاني (رحمه الله) لم يقع في إطلاق الأحكام العاطفية ،
بل حدد بشكل دقيق ومختصر مكانة الكاتب وظروفه ، وحدد بعض الأسباب التي
دفعت الكيلاني لمجاراة كتاب القصة .

ولذلك قلت فيما كتبت : (وهذا يؤكد بأن الكيلاني كان في بداياته القصصية
معنيّاً بترسيخ قدميه ، وتقديم نفسه بوصفه كاتب قصة مصريّاً يجيد كتابة الرواية ،
ويقف مع كتّاب القصة الآخرين : (نجيب محفوظ ، وباكثير ، والسّحار ، وعبد
الحليم عبد الله ، والشرقاوي ، ويوسف إدريس .. وغيرهم) ولهذا : لم تكن قصصه
الأولى تختلف عن قصص غيره إلا في نسبة مشاركة المرأة والجنس في
القصة ..) [4] .

وقلت أيضاً : (وتأرجح بين الرضوخ لتقاليد القصة الغربية والالتزام بالتصور
الإسلامي للقصة) [5] .

ووضّحت سبب تأرجحه في ذلك ، وأشرت إلى أن هذه الظاهرة تثير لدينا
قضية مهمة ، تبدو عامة عند كثير من الأدباء والكتاب الذين يتحدثون عن الأدب
الإسلامي ؛ وهي : فقرهم في الزاد الشرعي ، وتأثرهم بالفكر الغربي) [6] .

ولكن ذلك كله لا يمنع من الاعتراف للرجل بريادته في مجال القصة
الإسلامية ، وإسهاماته في مجال الأدب الإسلامي ، فالريادة لا تعني الإصابة ؛ لأن
الرائد هو من يتقدم القوم ليبصر لهم مواطن الكلأ ومساقط الغيث [7] ، فهو سابق
للناس يستطلع لهم ، ويخبرهم ، وقد يخطئ وقد يصيب . والكيلاني كان يخوض
غمار التجربة وسط جو يعج بالهيجان السياسي والفكري ، ويمتلئ بالأفكار المعادية
التي تهيمن على الساحة ، ولا يستطيع كاتب التعقيب أن يتصور مثل هذه الأجواء
المليئة بالفتن ، ووسط ذلك الجو بدأ الكيلاني يكتب حينما كان الآخرون يتهيّبون من
كلمة إسلام ، فهو رائد حقّاً في هذا المجال ، اجتهد فأصاب وأخطأ ، وحينما نتحدث
عنه لا نغض الطرف عن أخطائه ، ولا تأخذنا العاطفة في إطلاق الأحكام ، ولكننا
أيضاً لا نقع بالمقابل في الغلو فنرفض كل شيء منه ؛ لأنه أخطأ هناك وأصاب هنا .

لقد كتبت عن الكيلاني منذ وقت مبكر ، وكنت صريحاً وواضحاً في الكشف
عن هذه الأخطاء في كتابين خاصين بالقصة [8] ، بل وكان الرجل (رحمه الله) من
أحسن من يستمع إلى نقد ناقديه ، ويتقبل نصيحة إخوانه ، ويصغي إلى أصحاب
الرأي الآخر من قراء أدبه والنقاد .

ولهذا نلتمس له العذر ، ونسأل الله له الرحمة ، ونبين أخطاءه برفق وعدل ،
ولا نبخسه حقه من المميزات التي يستحقها عن جدارة .

وكذلك فإن لكل فن شروطه وأجواءه ، شريطة ألا يخرج عن الإطار
الشرعي : أي دائرة الحلال المباح ، ولا ينفع في إطلاق الأحكام العامة أن نطبق أخلاق
العابد الزاهد على كل المسلمين ، فربما كانت فضائلهم نوعاً من الإسراف والتبذير
والإساءة عند مثل هذا الرجل الزاهد .

وأخيراً : فللأخ الشكر كله على غيرته ، ونرجو الله (عز وجلّ) أن يقوي من
عزيمة المسلمين لارتياد مجالات الحياة بإيمان وصدق وشجاعة لتقديم الخير للناس ،
وإعطاء الصورة الصحيحة للحياة بعامة ، والأدب بخاصة ، وكما يريدها لنا رب

العالمين (سبحانه وتعالى) .

---

(1) مدخل إلى الأدب الإسلامي ، نجيب الكيلاني ، كتاب الأمة (1408ه) ، ص113 .
(2) المصدر السابق ، ص 115 .
(3) المصدر نفسه ، صفحة 112 ، 113 .
(4) البيان ، العدد (92) ، ص 76 .
(5) السابق ، ص 77 .
(6) انظر : البيان ، (92) ، ص 78 79 .
(7) انظر : القاموس المحيط ، ص362 ، مؤسسة الرسالة والمعجم الوسيط ، ص 381 ، المكتبة الإسلامية باستانبول .
(8) هما : (في القصة الإسلامية المعاصرة (و (دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة عرض ودراسة لعدد من قصص الدكتور نجيب الكيلاني) .

دعوة إلى التفكير

بقلم :سالم فرج سعد

إن مما تحيا به أمتنا : تفكير جاد معطاء ، وتصور بناء ؛ ذلك أن الأمم تحيا بعقول أفرادها ، وتنمو بتفكيرهم ..

ولا شك أن التفكير في حق خير أمة أخرجت للناس وأشرفها وأكرمها على الله أوكد وأوجب ، لأنها أمة الهدى ودين الحق ؛ التي حازت قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد -صلى الله عليه وسلم- ، ومما يدفعها إلى إحياء روح التفكير ، ويرغبها فيه : ما أشاد به كتابها المنزل من التفكر والتدبر ، قال (تعالى) ﴿ .. أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ : 46] ، وقال في صفات أولي الألباب ﴿ ... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴾ [ال عمران : 191] فالقرآن يربينا ويأخذ بأيدينا لنلتمس منه العبرة والعظة حين يفتح للفكر آفاقه ، وللتدبر أبوابه ، وإن كان مبدأ التفكير هو في نعم الله ومخلوقاته إلا أن ذلك هو الانطلاقة العملية والباعث للتفكير .. فهو منطلق العمل ، وبداية الحركة ، وإشراقة النور ، وكما قال (سفيان بن عيينة) (رحمه الله) : (الفكر .. نور يدخل قلبك) ، وربما يتمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة [*]

والتفكير الجاد ليس مجرد فلسفة نظرية أو تصورات عقلية ، بل هو يقظة روحية وهمة وقّادة ذات فعالية ، به تتضح معالم الطريق ويتبين الهدى من الضلال ، فالفكرة مرآة ترى فيها حسناتك وسيئاتك ، ومدرسة تكتسب منها حقائق وتجارب .

(*) تفسير ابن كثير ,ج1 ص 477 .

التاريخ الإسلامي : زاد

بقلم : زهرة الإبراهيمي

لقد وهب الله (عز وجل) الطفل قدرات ذهنية وعقلية عالية تتمثل غالباً في
ملكة الحفظ .. ولا غرو في أن أطفالنا يحفظون أسماءً .. وقصصاً كثيرة .. أسماء ،
شخصيات اجتماعية ، وسياسية ، وفنية وهي الغالبة وقصصاً خرافية وبطولية ربما
سمعوها أو شاهدوها أو قرؤوها في إحدى الوسائل الإعلامية .. وهذا في حد ذاته
أمر معتاد .. ولا يدعو للدهشة .. ولكن الغريب أن هذا الطفل الذي يمتلئ ذهنه بهذه
الأسماء والأحداث ربما لا يعرف إلا النذر اليسير عن الشخصيات الإسلامية
التاريخية ... ماذا يعرف أبناؤنا عن خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ؟ وماذا
تعرف بناتنا عن الخنساء أو سمية بنت الخياط أو .. ؟

ولا شك أن التاريخ الإسلامي كان هدفاً لأعداء الأمة من مستشرقين
ومستغربين .. بداية من جورجي زيدان وانتهاءً بالمسلسلات التاريخية الهابطة ،
التي تشوه الحقائق والأحداث . لقد عرف أعداؤنا أن الشعب الذي لا يملك ماضياً هو
بالتأكيد لا مستقبل له ، وشاهدوا ولمسوا قوتنا النابعة من معين التاريخ الإسلامي
الصافي ، من نماذجه المشرقة ، من تضحيات أفراده : من صفحات التاريخ وجد
هذا التراث الهائل من القيم والأخلاق . أيتها الأم المسلمة في البيت ، أيتها المعلمة
المسلمة : نحن نعد جيلاً مسلماً نريد منه أن يحمل الأمانة ، أمانة الدين وأمانة
التاريخ ، وهذه بلا شك رحلة مضنية وشاقة يلزمها الكثير من الصبر والكثير من
الجلد .

ولا شك أن التاريخ لن ينسى صبرك وجلدك في سبيل المحافظة عليه ! !
وليكن التاريخ الإسلامي الصحيح هو زادك والمعين الذي تسقين منه هذا الجيل
المتعطش للمبادئ والقيم السامية ، إننا نقف على ثغر من ثغور الإسلام ، فحذار أن
يؤتى الإسلام من قبلنا ..

كشف اللثام
عما تعانيه الأمة من الجروح والآلام

بقلم : غازي الوادعي

إن الأمم ترقى إلى السمو والعلو بما تنتجه من حضارة ، وبما تقدمه للبشرية من خير .

وقد كانت الأمة الإسلامية ، وستبقى بإذن الله هي الأمة الوسط التي تقود الناس إلى بر الأمان وإلى طريق النجاة .

كانت أمة صاحبة رسالة تخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام ، كانت مصدر السعادة للناس .

إن حضارة الإسلام لم تكن حضارة مادية فحسب أو حضارة أرضية (وإن كانت هذه الأشياء مما لابد منه) ، وإنما هي قبل ذلك حضارة عقيدة ، حضارة جهاد ، حضارة أخلاق ، حضارة استخلاف في هذه الأرض ..

واليوم تمر الأمة بأسوأ مراحل ضعفها ، والناظر المتأمل بعين البصير المتدبر يرى حال الأمة الإسلامية : يرى من الجروح والآلام ما تنفطر له القلوب ؛ فيرى أن الأمة قد استهوت الذل واستمرأته ؛ لأنها أخلدت إلى الأرض ، وتتبعت شهواتها وغرائزها بنهم ، فنست الجهاد والقتال في سبيل الله .

ومن الآلام : الجهل المطبق عند عامة الناس إلا من رحم الله ، ليس جهلاً في أمور معيشتهم أو أمور دنياهم ، وإنما في أمور دينهم ، والشرك المنتشر في أطناب الأمة الإسلامية أكبر شاهد على ذلك ، وانتشار الأحاديث الضعيفة بين الناس وتمسكهم بها ، وجهلهم وتساهلهم في أداء الفرائض والعبادات المفروضة عليهم ، وأما أخلاقيات وسلوكيات كثير من أفراد الأمة : فأصبحت مقيدة بما تمليها عليهم المصالح الدنيوية .

وأيضاً من الجروح التي تأن بسببها الأمة :

* الغياب الكلي أو الجزئي للدين في بيوت كثير من الناس ؛ حتى أنهم ألفوا المعاصي : كبائرها وصغائرها ، وأصبحت النفوس لا تفرق بين المعروف والمنكر في صغيرة أو كبيرة من حياتهم .

* إن الأمة ما زالت تعاني الأمرين من صنف من الناس ، وصفهم الرسول -
صلى الله عليه وسلم- بأنهم دعاة على أبواب جهنم ، يقذفون الناس إلى جهنم بحلاوة
كلامهم وطلاوته ، هم المنافقون ، وما أدراك من هم ؟ ! ، إنهم قوم وصفهم الله
(سبحانه وتعالى) ونعتهم بنعوت في أكثر من سورة من القران الكريم : يطعنون في
الدين ، يتلونون في كل ثوب ، إنهم خفافيش الدجى في كل عصر وزمان ، يظهرون
في الليل حتى يضربوا ضربتهم .

* وثالثة الأثافي جهل الأمة بالعدو المتربص بها ، تربص الدوائر ، وقد نست
الآيات المحذرة من هذا العدو ، فأصبحت توالي مَنْ غضب الله عليه ولعنه ،
وأصبح الولاء والبراء معتمداً على مصالح خاصة ليس لها بالدين علاقة ، لا من
بعيد ولا من قريب .

بريد البيان

رسائل نعتز بها :

تصلنا رسائل من مختلف ديار الإسلام ما بين مادحة وعاتبة ، وموجهة
ومصوبة ومشجعة ، ونرد على بعضها ما وسعنا الجهد . إلا أنه وصلتنا رسالة من
فضيلة الدكتور عبد الله بن محمد العجلان ، ولقد اضطررنا إلى حذف الكثير من
الثناء فيها على المجلة ، ونكتفي بنشر تلخيص لرسالته (جزاه الله خير الجزاء) :

إن القراءة المتأنية لمجلة البيان جعلتني أشعر بفيض من المشاعر والأحاسيس
التي ما كانت تخطر ببالي قبل ذلك ، ولا ينبغي أن تكون حبيسة النفس ، بل هي
قضية مشتركة ، ومن أهم ملامح هذه المشاعر :

1- إن مجلة البيان (هذا الصوت الندي من ديار الغربة) تخاطب الفرد المسلم
في ديار الإسلام ، وهي مؤهلة لتبليغ رسالة الإسلام : عقيدة ، وعبادة ، ونظام حياة .

2- إن تقصير كثير من العلماء بالمشاركة والتوجيه في مثل هذه المجلة جعله
الله خيراً في شباب واعد من طلبة العلم ، ومن بعض العلماء والمفكرين ؛ ليقيم الله
به المحجة ويوضح الحجة والله غالب على أمره .

3- إن كثيراً من المجلات العربية على اختلاف ألوانها ومشاربها ذات
انتماءات متعددة ، إلا أن هذه المجلة لا تكاد توجد إلا في أماكن محددة
وبأعداد قليلة ، إذ هي مجلة الخاصة ، وتلك مع الأسف مجلات العامة ، وهذا يومئ إلى خلل في
حياة الأمة الإسلامية ، يتمثل في عدم التوازن بين الفرص المتاحة لكل الأصوات
على اختلاف ألوانها .

4- الشعور العميق بالاحترام والاعتزاز تجاه المجلة وأقلامها ، للمعالجة الجادة
والطرح الموضوعي للأفكار .

وفي النهاية يدعو الدكتور (جزاه الله خيراً) للمجلة بالتوفيق في خدمة الدين
الحنيف ورفع شأن الأمة الإسلامية .

القارئ الحريص على المجلة :

بعد شكره لجهود القائمين على المجلة أبدى ملاحظات ومنها : سؤاله عن
نصيب المرأة والطفل والأسرة عامة وعن الرقائق والإيمانيات . وتمنى لو وجدت
في المجلة زاوية للفتاوى التي تهم المسلمين ، ولاسيما في الغرب ، ونحن نقدر
حرص الأخ الكريم وما ذكره من ملاحظات جيدة ونتمنى على الكتّاب التطرق لها .
والفتاوى ننشرها بين وقت وآخر . وسنحاول جاهدين نشر كل ما يصلنا مما
يعالج الواقع ويفصل الموقف من النوازل المستجدة .. وفق الله الجميع إلى كل خير .

كاتب لم يذكر اسمه :

يؤكد مع جمع من القراء أهمية وضع الهوامش في كل صفحة عوضاً عن
وضعها في نهاية كل مقال . نشكرك وهذا الاقتراح سيرى النور قريباً إن شاء الله

مشتاق حسين :

قصيدتك -ابتسم فأنت مسلم- ستنشر في عدد قادم بإذن الله .

عثمان حمد الحواس

نرحب بك ، ونشكرك على مشاركتيك المعنونة ب لنفكر بمرونة - وهموم
طالب في المرحلة الثانوية- وقد رأت أسرة التحرير نشر أجزاء منهما في منتدى
القراء ، كما ان مقالك -صناعة المشاعر- معروض الآن على المحرر الأدبي .

د . حسن إبراهيم

نعتذر عن نشر مشاركتك (عرض لكتاب الأمة الإسلامية من لتبعية إلى
الريادة) لكون الكتاب صدر منذ فترة ليست قصيرة وبعض مواده سبق نشرها في
المجلة .

الورقة الأخيرة

بائع خبز فقيه !

بقلم :محمد بن عبد الله آل شاكر

رأيته وهو يحمل عبء السبعين من السنين ، تزينه لحية بيضاء ، وابتسامة
لطيفة ، يلقاك بها وأنت تشتري منه الخبز في واحد من مخابز بلدنا الحبيب ، ولما
دخلت عليه في إحدى الليالي ، بعد صلاة التراويح بادرني بالسؤال : ما رأيك في
القراءة من المصحف في الصلاة ؟ وكان يقصد صلاة التراويح في رمضان .

وقد وقع في ظني أنه تفقّه على مذهب الإمام أبي حنيفة (رحمه الله) كغالبية
أهل موطنه (أفغانستان) فقلت له : صلاته تامة ؛ لأن القراءة عبادة انضمت إلى
عبادة أخرى هي الصلاة ، والعبادة لا تفسد الصلاة ، وهو قول أبي يوسف ومحمد
بن الحسن .

فأجابني : ولكن شيخهما (أبا حنيفة) يخالفهما في ذلك ؛ وكأنه بهذا الكلام يشير
إلى ترجيح رأي الإمام في فساد هذه الصلاة لما فيها من تشبّه بأهل الكتاب ، إذ
الفتوى على قول أبي حنيفة في المذهب سواء أَوَافَقَهُ أحد أصحابه أم لم يوافقه .

ثم مدّ يده إلى كتاب ضخم ، فإذا هو جزء من (فتح القدير) للكمال بن الهمام
شرح (الهداية) للمرغيناني الحنفي ، بطبعة حجرية هندية دقيقة ، وعليها حواشٍ لا
يصبر على القراءة فيها وبين سطورها المتعرجة والمائلة إلا أولو العزم من طلبة
العلم ، وفتح الكتاب ليقرأ لي نصّاً فيه ذلك الحكم ، فعجبتُ والله لهذا الفقه الدقيق
عند بائع الخبز الطاعن في السن ، وزادني هذا حبّاً له وإكباراً ، ولكن عجبي ازداد
أكثر عندما فتح كتاباً آخر بجانب منضدته (بل هو ثلاثة كتب في كتاب : متن ،
وشرح ، وحاشية ! !) ، واسمه (قمر الأقمار على نور الأنوار شرح المنار) لكي
يؤيد ما ذهب إليه من الفقه بقاعدة من الأصول ! .

وعندئذ أصابتني حالة من الذهول والشرود ، عدتُ بعدها إلى انتباهي وقد

ارتسمت أمام ناظريّ صورة عدد من الطلبة في إحدى الجامعات ، وقد أهدتهم الكلية
التي ينتسبون إليها مجموعة من الكتب والمصادرالعلمية ، تشجيعاً لهم وحفزاً لهممهم ، وتعزيزاً لتفوقهم ، وبين هذه الكتب (فتح القدير) نفسه ، ولكن بطبعة جميلة
واضحة ، وهم يريدون أن يستبدلوا به كتاباً آخر ، متسائلين عن فائدته
وموضوعه !!.

أما الكتاب الآخر ، وهو (قمر الأقمار ...) فهو شرح العلامة محمد بن عبد
الحي على (نور الأنوار) لِمُلا جَيّون ، وهذا شرح (للمنار) للنّسفي ، فقد قفز إلى
ذهني سؤالٌ حياله : كم من أساتذتنا وطلابنا المتخصصين قد سمع بالكتاب ومؤلّفه ،
أو اكتحلت أعينهم بمرآه ، بَلْه القراءة فيه والرجوع إليه ؟ .

ما أظن أنّ حالفاً يحنث لو حلف بأنّ كثيراً منهم لم يسمع بهذا الكتاب ، ولم
يره من باب أولى ! ، تُرى ما الذي يشغل كثيراً منا ومن طلاب العلم ؟ وما مدى
اهتمامهم بما نذروا أنفسهم له ؟ أم أن الاهتمام بالرصيد ومتابعة الأسعار وتقلّباتها
زاحمت اهتماماتهم العلمية ونموّهم التربوي المهني ؟ أسأل الله لي ولهم الهداية
والتوفيق ، وأن يردّنا إلى ما نكون به خير أمة [*] .

(*) مسألة حمل الإمام للمصحف للقراءة في الصلاة فيها خلاف بين أهل العلم ، واختار بعض المحققين جواز ذلك ، فإذا كان الإمام لم يحفظ ، أو كان حفظه ضعيفاً وقراءته في المصحف أنفع للناس وأنفع له ، فلا بأس بذلك ، وقد أورد البخاري (رحمه الله) تعليقاً في صحيحه عن عائشة (رضي الله عنها) أن مولاها (ذكوان) كان يصلي بها في الليل من المصحف ، والله أعلم
- البيان - .

تمت بفضل الله والحمد لله